

■ إبراهيم الإبياري

نهاية المطاف

مطبوعات الشعب

الإهداء

... إلى التي وفّت لي
فمأزنتني حياة ومأزنتني
أملًا .. ووفيت لها
فوصلت حياتي بحياتها ..
وأملى بأملها ..

ابراهيم الابيارى



الطبعة الثانية

منذ أعوام تربي على العشرة بقليل صدر هذا الكتاب حلقة من حلقات التاريخ لذلك الصراع المتصل بين العرب الذي بدأ على الحكم جاهليا واستمر اسلاميا دولة بعد دولة .

وقد ضمنت هذا الصراع كتبا أربعة ، هذا الكتاب ، وكتبا ثلاثة أخرى تسبقه هي : مغيب دولة ، وميلاد دولة ، وقيام دولة .

وقد بسطت في هذه الكتب ، كما بسطت في هذا الكتاب أسباب هذا الصراع ومداه وآثاره ، وماناله المشاركون فيه والمتصلون به ثم ماناله الشعب من حول هؤلاء وهؤلاء .

وسيرى القارئ هذا كله مفصلا في كل كتاب من هذه الكتب الأربعة وسيرى معي أن فقدان الشورى في كل هذه المراحل كان وراء هذا كله ، أن لم يكن سبب هذا كله .

وحرصى على أن تكون هذه الصفحات المؤرخة لهذا الصراع كاملة هو الذي حفزني إلى أن أعيدته في طبعته هذه الثانية بدار الشعب التي صدر عنها الكتاب الثالث في هذه الحلقات التاريخية ، وهذا بعد نفاذ طبعته الأولى .

وانى لأرجو أن أضف الى هذين الكتابين ، هذا
الكتاب وقيام دولة ، الكتابين الآخرين : مغيب دولة
وميلاد دولة ، فى طبعة ثانية ، لأضع بين يدي القارئ
طبعة موحدة تضم هذا الصراع الذى هو وإن كان
مشكلة من مشاكل الماضى ، فهو لا يزال مشكلة من
مشاكل الحاضر فيها العقلة وفيها العبرة •

هدانا الله الى سواء السبيل •

ابراهيم الابيارى

شهر ربيع الأول ١٣٩٨

فبراير ١٩٧٨



الطبعة الأولى

هذا كتاب يضم الحقبة الأخيرة من صراع بدأ بين الهاشميين والأمويين وانتهى بين العلويين - الفاطميين - والعباسيين ، بدأ على أرض غير أرض مصر وانتهى على أرض مصر ، شاركت فيه مصر حين بدأ بقلوبها ، وشاركت فيه مصر حين انتهى بقلوبها وأرواحها ودمائها ، وكان حين بدأ جزءا من تاريخ مصر العام ، وكان حين انتهى جزءا من تاريخها الخاص ينضاف الى تاريخها العام .

نهذا كانت هذه الحقبة تعنى مصر دولة وتعنيها جزءا من الدولة العربية ، وكانت هذه الحقبة تعنى الدولة العربية كلها لأنها حلقة من حلقات تاريخها العام . ولقد دلت مصر بما حملت فيها على أنها تعطى القضية العربية أكثر مما تأخذ ، تصبر لها صبر الأم البارة لولدها ، يعينها أن يكمل ولا يعينها ما تبذل .

ثم هى حقبة فيها عظمات كثيرة ، أبلغها تلك العظة التى يملئها التضاح وتملئها الغرفة ، وأدناها تلك العظة التى يملئها نسياننا أنا أخوة على رأى ونهج ، فهى عظمات فى عظة ، وعظة تصورها عظمات ، وما أحرصنا على أن ننتهى الى هذه العظة ، ثم ما أحرصنا على أن نمكن لها بتلك العظمات . ومن لم يفد من أمسه لم ينفعه يومه ، ومن لم ينفعه يومه عاش لا أمل له فى غده .

ولقد استصغيت ما فى هذا التاريخ الطويل من أحداث يأخذ بعضها برقاب بعض ، ويمهد سابقها للاحقها ، أريد أن أجعل منها قصة موصولة الحلقات لها سرد ولها مغزى ، لا أنثر هذه الأحداث متفرقة غير موصولة فينقطع السرد ويضل المغزى .

والتاريخ بمعناه العام تنتظمه كتبه ، فيها المادة أوعب ما تكون
وأجمع ما يصل إليها جمع ، واني حين أعرض هذا التاريخ أبغى ان
أصوره هذا التصوير الخاص الذي أشرت اليه ، وما أنا بمن عاصر
تلك الأحداث فيروها عن مشاهدة أو سماع ، ولا من رواة الأخبار
فأروى هذه الأحداث رواية المؤرخين الجامعين ، ولكنى قارىء لهذا
التاريخ المجموع مفيد من أحداثه أحاول أن استنطقها ما تضرمر ،
لأنقل هذا الذي تضرمر الى الناس ليفيدوا منه فائدة جديدة ،
فائدة تنضم الى مكتوبه .

وما أراه شيء وما يراه غيرى شيء ، وقد يلتقى هذان الشيطان
وقد يفترقان ، وهما للخير اتفاقاً أو افتراقاً ، ما أمليا عن صدق ولم
يمليا عن غرض .

والتاريخ العام كما يكون باطلا من البطلان ، حين لا يجمع الا
الزيف ، كذلك يكون التاريخ المستخلص حين يوجه الحق .

وليس أحب الى بعد هذا من أن أكون وفقت فيما استملت
واسستخلصت ، ووفقت فيما عرضت ، ووفقت فيما رأيت ، ثم
ما أشقاني ان ضننت بالرأى ، أو عدلت به عن نهجه ، ثم ما أعذرني
مع زلات الرأى ، فما على الا أن أجتهد ، وما توفيقى الا بالله .

ابراهيم الابيارى

نوفمبر ١٩٦١

أحب أن أصلك بأول الحديث حتى لا يلتوى عليك آخره ، وأحب أن أقدم لك هذا الشطر الأول من الحديث مجملا بعد أن قدمته لك في كتب ثلاثة - مغيب دوله ، وميلاد دوله ، ثم قيام دوله - مفصلا ، وأحب من هذا الحديث المجمل وذلك الحديث المفصل أن تكون بين يديك صفحة يمهد أولها المجمل لآخرها المفصل ، فإذا أنت متهيئ بهذا التمهيد لما سيطالعك به ذلك التعقيب ، موصول بالأسباب والنتائج ، تملئ معنى عن علم وتستقرئ عن علم ، مستحضر الأحداث الرئيسية تباعا لا يضل عنك منها شيء .

فهذا الشق الذي أنا آخذ معك فيه على صفحات هذا الكتيب لم يبدأ مقطوعا عما قبله ، بل هو امتداد لما سبقه ، وكان ما سبقه هو الذي أملاه . وكم من أحداث تملئ ولكن الزمن يقطع عليها مسارها ، فإذا هي عند النقطة التي بدأت منها ، لا يضاف إليها جديد ولا يكتب لها اتصال ، يجمد بها هوائها عن أن تحمل الدوافع في طياتها ، ويهون معها أصحابها فلا يدفعونها لتمضي موصولة .

ولكن هذا الحادث الذي أملئ هذا التاريخ لم يقو الزمن على أن يقطع مسارها ، لأنه كان جللا ، ولأن أصحابه كانوا أجلاء ، فغلب الزمن بقوته وبإيمان أصحابه به ، أن خفى شيئا حركه أصحابه لينتعش ، وأن فتر أصحابه شيئا حركهم هو لينشطوا ، فلقد عاشوا به موصولين وعاش هو بهم موصولا ، حيا بهم وهم أحياء به ، وكان قضية لابد أن يتوجها حكم ، ولابد أن يكون ذلك الحكم كما أراد أصحابه أن يملوه ، لأنهم كانوا يرون الحق معهم .

ويبين لك أن تعرف كيف بدأت تلك القضية ، أو تلك القصة التي أملت تلك القضية ، تعرفها في ذلك الاجمال الذي تراضينه ، معا ، حتى لا أثقل على نفسك بتفصيل ما قد فصلته من قبل ،

وحتى لا أثقل عليك فأشغلك بأول الحديث — الذى هو تمهيد —

عن آخره الذى هيأت هذا الكتيب له .

والقصة التى أملت هذه القضية قديمة كانت حدسا من الحدس حين بدأت لا يعدو أن يكون رجما بالغيث ، ثم اذا هو حق كله يمكن آخره لأوله ويغرى أوله بآخره .

فلقد كانت الأمور فى الجاهلية العربية لعبد مناف تجرى صفوا بين يديه ، ألى أن ولد له ولداه : هاشم وعبد شمس ، توأمين ، وعقب هذا موصولة بعقب ذاك .

وما كان للولدين أن يعيشا موصولين على هذا النحو المعوق ، وما كان للأب أن يتركهما لينشأ جامدين معا ساعيين معا ، فعهد أنى طبيب الحى أن يقطع تلك اللحمة الهينة الواصلة ، فاذا المبضع حين يفصل يسيل دما ، واذا هذا الدم يؤوله العرافون شرا مستظيرا يثور بين أعقاب هاشم وأعقاب عبد شمس .

ولقد آمن بهذا عبد مناف ، لأنه كان يؤمن بما يقول به العرافون وأمن به الوليدان حين شبأ لأنهما كانا يؤمنان بما يقول به العرافون ، وأمن به الناس من حول الأب ومن حول الوليدين ، لأنهم كانوا يؤمنون بما يقول به العرافون ، فاذا هذا الايمان يمل بعضه على بعض ، ويساند بعضه بعضا تمتلئ به نفس الأب فيضفيه عن وعى وعن غير وعى على ولديه ، وتمتلئ به نفسا الوليدين فيمكنان له فى قلوبهما عن وعى وعن غير وعى ، وتمتلئ به نفوس الناس فيهيئان له فى قلب الأخوين عن وعى وعن غير وعى . وتمضى الأيام تعطى أخا وتحرم أخا ، فاذا الذى أعطى من متاع الحياة وجاها حريص على ما نال يخاف أخاه عليه ، واذا الذى حرم متاع الحياة نافس على أخيه يريد أن يزحزحه من مكانه لينال ما فى يده ، واذا كلاهما على غير الرضى بمكان أخيه منه .

فلقد حظى هاشم بما لم يحظ به عبد شمس من شئون قریش ، وكما حظى بهذا الجاه هاشم دون أخيه عبد شمس ، حظى به ابنه عبد المطلب دون ابن عمه أمية ، واذا بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم من عقب هاشم تضيف الى هذا البيت الهاشمى عزا لم يبلغه البيت العبشمى ، واذا البيت الهاشمى مذكور ، واذا البيت العبشمى خامل .

ولو أن القلوب لم تفتتح لما تفتحت له ، ولم يدخل عليها العرافون بما دخلوا عليها به ، ولم يملأها عليهم الناس بما ملئوها به ، لاستقبال الأخوان الحياة استقبالا آخر - لا نحسبه يكون صفاء كله ، فما تجردت القلوب عن أن تنفس وعن أن تحقد - استقبالا لا يعتمد على هذا الأساس من الشر الذي صبغ كل شيء بصيفته .

وإذا انعدا بين الأعقاب الذي بدأ ظنا يستحيل فكرة تدور في الرؤوس ، ثم كلاما تتحرك به الألسنة ، حتى إذا ما قبض الله اليه رسوله أطل الأمويون يريدون الدنيا في تردد أولا ، يخافون بنى هاشم ويخافون على رأسهم عليا . لهذا لم يقدموا وظلوا يرقبون الأمور وهي تجري ، كلما مرت بهم فرصة غنموا ، وان فقدوا الفرصة أوجدوها . كانوا متطلعين الى الحياة انتى حرموها فكانوا جادين ساعين ، وكان الهاشميون يرون الحياة لهم فكانوا غارين غافلين .

ولقد سكن الأمويون خلافة أبي بكر وعمر يترقبون ، حتى إذا ما ولى الخلافة عثمان التفوا به ، لأنه كان رجلهم ، والتفوا بالحياة لأنهم رأوها أقبلت عليهم ، فكانوا لا يحبون أن يمضى شيء فيها إلا وعلمهم به موصول . يعينون عثمان على أمره ، وهم يعينون أنفسهم ، ويفتاتون على الهاشميين وهم يريدون أن يباعدوا بين الهاشميين وبين عثمان ، ليقربوا هم الى الحكم خطوة ويبتعد الهاشميون عن الحكم خطوة ، حتى إذا ما كانت الفتنة على عثمان - وكانت حظوتهم عنده من أسبابها الأولى - دخلوا فيها دخول المحب لشيء فيها الكاره لشيء فيها ، يحبون في أعماق نفوسهم أن تمضى الفتنة ليدفع الهاشميون ثمنها متهمين ، ويكرهون في ظاهر أمرهم أن تمضى الفتنة ، ليقبضوا هم ثمنها غير متهمين ، وتنتهى الفتنة بمقتل عثمان فاذا الهاشميون خاسرون ، وإذا الأمويون كاسبون ، فلقد غدا الأمويون أصحاب دم عثمان المراق ظلما ، وغدا الهاشميون ، وعلى رأسهم علي ، المطالبين بدم عثمان .

ويل على الخلافة في هذا الجو النائر الصاخب ، يمتنع عليه معاوية - وكان واليا على الشام - ويمتنع على علي غير معاوية : من

لهم أطماع في الحياة ، يرون معاوية سخيًّا بها عليهم ذون علي ، ومن ليست لهم أطماع في الحياة ، ولكنهم على غير حب لعلي ، ومن هو غير طامع ولا كاره ولكنه كان على غير رأى علي ، فإذا الاجماع على اختيار علي ينقلب غير اجماع ، وإذا على يخرج للقاء عائشة بمن انضم اليها يوم الجمل ، وإذا المسلمون يلقي بعضهم بعضا محاربين بعد أن كانوا يلقون معا عدوهم محاربين ، ويقتل مسلمون هنا كما يقتل مسلمون هناك ، ويخرج علي من هذه المعركة منتصرا شبه مهزوم ، فلقد حقق كسبا له ولكنه لم يحقق وحدة للأمة .

وما يكاد على يفرغ من هذه حتى يخرج للقاء معاوية في صفين ، ولئن كانت الأولى حربا هينة لأنها لم يحركها الطمع في الملك ، فلقد كانت الثانية حربا عنيفة لأن انطمع في الحكم كان الباعث لها ، ولئن كانت الأولى هينة ، لأن كفة على كانت الراجحة ، فلقد كانت الثانية قاسية لأن الكفتين كانتا أقرب الى التعادل ، من أجل هذا خسر على وخسر معاوية ، ولم يخسر على نفسه وإنما خسر جملة من أصحابه المسلمين ذوى الخطر في الاسلام ، ولم يخسر معاوية نفسه وإنما خسر جملة من المسلمين ذوى الخطر في الاسلام . وتنتهى الحرب الى مهادنة ثم الى تحكيم أريد به غير وجه الحق ، فإذا معاوية قد مكن لأمره ، وإذا على قد فسد عليه أمره ، وإذا خلافة على التي أرادها أمنا وأرادها معه من اختاروه أمنا ، تمتلئ اضطرابا وبلبلة ، وإذا أمر المسلمين كلهم الذى أرادوه أمنا يعود فوضى أو شيئا قريبا من الفوضى ، وإذا خارجون ثلاثة - هم : ابن ملجم والبرك بن عبد الله التميمي وعمرو بن بكر السعدي - يجمعون على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص ، ويرون أن قتلهم إنقاذ للأمة من هذه الورطة . ويفلح ابن ملجم في قتله عليا ، ويخفق البرك وعمرو في قتلها معاوية وعمرو بن العاص .

وهكذا اعتت الحياة معاوية ولم تعن عليا ، ومكنت له ولم تمكن لعلي . وخلا الطريق أمام معاوية الى هذا الحكم الذى دبر هو له وأعانه الدهر عليه .

ووجد معاوية الحسن بن علي دونه على أول هذا الطريق فتهيأ له بدفعه عنه ، وما كلفه ذلك حرباً ولكن كلفه شيئاً دون الحرب ، شيئاً يسيراً كل اليسر . فلقد اشترى معاوية هذا الحق الباقي للحسن بدراهم معدودات وبأعراض يسيرة ، وما إن أرضى الحسن ورضى الحسن فباع ، حتى تكث معاوية فيما شرط على نفسه ، وإذا الحسن قد خرج من دنياه وأخرج معه الهاشميين من دنياهم بتلك الصفقة الغائبة ، وإذا معاوية قد دخل دنياه وأدخل معه الأمويين دنياهم التي كانوا يطمعون فيها معه بهذا الثمن الذي دفعه من حرب ومال منقوص وعهد منكوث .

٢

واستقامت انحية معاوية كما استقامت للأمويين ، وأقاموا دولة ، هي وإن كانت للمسلمين في معناها العام ، فلقد كانت للأمويين في معناها الخاص ، فهي لهذا حملت اسمهم الخاص ولم تحمل الاسم العام . وما استقبل المسلمون بهم حكومة على نمط الحكومة الأولى أيام الخلفاء الراشدين ، يختارون من بينهم خليفتهم من هذا البيت ومن ذاك البيت ، يجعلون الخلافة لخيرهم من المسلمين ويختارون الخليفة كما يشاءون ، بل استقبل المسلمون أمرهم ، لتكون الخلافة في هذا البيت الأموي ، وليكون الخليفة من هذا البيت الأموي ، وهكذا رد الأمويون أمور المسلمين إلى جاهليتهم الأولى ، على صورة أخرى ، وحققوا بهذا النصر ما حرموه أولاً ، وما غلبهم عليه الهاشميون .

بهذا دخل معاوية الحكم يريد لنفسه ويريد ولده ، فما مضت الأيام غير قليل حتى شمر يدعو لابنه يزيد . وكان غريباً على المسلمين — وهم الذين ألفوا الحياة الفخيرة حياة الخلفاء — أن ترضى نفوسهم بما رضيت به نفس معاوية ، فامتنعوا عليه شيئاً ، لم يظهر هذا الامتناع الناس كلهم ، لأن الناس كلهم كانوا لا يملكون

أمرهم في ظل اغراء معاوية وعنفه ، وكان الذين أمتنعوا على معاوية نفرا من أولى الراى ، ناحتال معاوية ما وسعته الحيلة ، حتى اذا ما أعيته الحيلة مع نفر منهم حملهم على ما يريد قسرا ، فاذا يزيد ولى عهد ، واذا يزيد خليفة على المسلمين بعد معاوية .

ولكن الهاشميين الذين استكانوا شيئا بعد مقتل على ، ثم استكانوا شيئا بعد نزول انحسن عن حقه . كانوا لما يذب فى نفوسهم استمسكهم بحقهم ، وكانوا لما يذب فى نفوسهم خلافهم على الأمويين ، فانتعشوا شيئا خلافة يزيد ، يرونه دون أبيه قوة ويرونه دون أبيه حزما . والناس الذين خافوا معاوية مع الهاشميين لم يخافوا يزيد مع الهاشميين ، فاذا هم يحركون الحسين للأمر .

وما كان الحسين فاترا عن حقه ولكنه كان فاترا بفتور الناس . وحين أحس فى الناس نشاطا الى هذا الحق ، نشط بنشاطهم ، فاذا هو ناثر بهم على يزيد ، خارج عليه .

ولكن يزيد كان ملكا ذا دولة ، وكان الحسين ناثرا قد التفت به الناثرون . وكان يزيد ذا حشد كثير ، وكان انحسين ذا حشد قليل . وكان يزيد ذا مال يجتمع ائيه من الخراج المفروض ، وكان الحسين لا مال له غير ذلك المال الذى وجود به الواهبون . وكان يزيد ذا ملك قائم يرغب ائيه الناس ويرهبونه ، وكان الحسين يسعى الى ملك قد يحققه وقد لا يحققه ، فلم يجد رافعا ولا راهبا ، اللهم الا هؤلاء الذين جمعهم اليه الايمان بحقه وحق بيته ، ولقد كن هؤلاء المؤمنون بحقه على حرف يخافون اكثر مما يرغبون .

لهذا كله لم يقو الحسين على حرب يزيد . وانفض الناس عن الحسين ليلتفوا حول يزيد . واذا الحسين مقتول شر قتلة ، واذا جملة كبيرة من اهله الذين ثبتوا معه ، مقتولون هم الآخرون شر قتلة ، واذا الأمر يخلص ليزيد بعد مقتل الحسين ، كما خلس لمعاوية بعد مقتل على على يد ابن ملجم .

وما كان هذا الخلاف بين الهاشميين والأمويين خلافا يقوم حول فرد . وحول حق لهذا الفرد ، اذا ما ولى هذا انفراد ولى هذا الخلاف حوله وحول حقه . ولكنه كان خلافا يقوم حول بيت ويقوم حول حق لهذا البيت ، فكان مضي هذا الفرد مدفوعا عن هذا الحق يمكن لهذا الخلاف ويحييه ، وكان ما يناله هؤلاء الماضون مدفوعين عن هذا الحق ، من قتل واسفاف فى هذا القتل ، مما يهيج هذا الخلاف ويقويه .

ولقد قتل على بيد غير يد الأمويين فأحزن ذلك الهاشميين ، وكاد أن يفت فى عضدهم ، اذ رأوا فيه غصبة من غضبات الرأى العام . وحين قتل الحسين بيد الأمويين أحزن ذلك الهاشميين ولم يفت فى عضدهم ، لأنهم رأوا فيه الناس غاضبين معهم على الأمويين . وما فات الهاشميين مع مقتل على بيد ابن ملجم بلغوه مع مقتل الحسين فى كربلاء بيد الأمويين ، ولقد قتل على مطعونا لم يمثل به ، وقتل الحسين بسيوف الأمويين ثم مثل به ، ولقد طعن على ومضى موفور الجسم لم يفصل منه عضو ، وقتل الحسين فاذا رأسه يفصل عن جسمه ، واذا هذا الرأس يحمل الى يزيد ليشفى بمراء نفسه . من أجل هذا نسي الهاشميون مقتل على وذكروا مقتل الحسين ، فاذا هم حائقون واذا هم متألبون ، واذا الراغبون فيهم المؤمنون بحقهم يملكون الأسباب لينشروا دعوة ، وليجمعوا الناس حول هذه الدعوة . وما قتل الأمويون مع الحسين كل آل الحسين ، وما كان فى مقدورهم أن يفعلوا هذا الا اذا قورا على ان يخلصوا من خلق كثير ، والا اذا قورا على أن يلحقوا الصغار بالكبار ، والا اذا قورا على أن يشقوا بطون الأمهات عن أجنتها . وما نظن الأمويين كان فى ملكهم أن يفعلوا هذا كله ، وان كانوا قد فعلوا شيئا قريبا من هذا كله . وكان محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب فيمن نجوا من بطش الأمويين ، ولعل الذى مد فى حياته أنه كان فيمن بايعوا يزيد ، ولقد أكرمه يزيد حين ولى ودعاه اليه فى دمشق وأعطاه الكثير .

ولكن الذى لا شك فيه أن ابن الحنفية أعطى يزيد حين أعطى
من رهبة معاوية أولا ، كما فعل أخوه الحسين من قبل ، حين نزل
لمعاوية عن حقه فى ظروف ربما كانت أطيب مواتاة من تلك الظروف
التي بايع فيها ابن الحنفية ليزيد ، وحين دعا يزيد إليه ابن الحنفية
أول ما ولى ، ولى ابن الحنفية وقبل عطاءه ، لم يكن الحسين قد
تهيا للثورة بيزيد ، وكان يرى الأمور تجري على حال من الملاينة بين
الهاشميين والأمويين ، فلم يجد غضاضة فى أن يخرج الى دمشق ،
ولم يجد غضاضة فى أن يقبل عطاء يزيد .

لعل هذا كله ، ولعل شيئا من هذا كله ، هو الذى مال بإبن
الحنفية ميلته هذه . ولكننا نراه حين هب عبد الله بن الزبير يدعو
لنفسه بعد مقتل الحسين أبى عليه ابن الحنفية ما أراد ، قد يكون
ذك برا منه بعهده ليزيد ، ولكنه على كل حال فتح بهذا الاباء الباب
أمام الشيعة ليلتفوا حوله ويبدعوا دعوتهم وينظموا الصفوف لهذه
الدعوة .

فلقد خرج من بين الصفوف المختار بن أبى عبيد الثقفى يدعو
لمحمد بن الحنفية ، ولكن ابن الحنفية على هذا لم يلق بالا لهذه
الدعوة ، لأنه كان قليل الثقة بأهل الكوفة الذين خذلوا أباه عليا ،
ثم خذلوا أخاه الحسين ، ولكن الدعوة على الرغم من هذا مضت على
صورة من صورها لتؤكد لك أن هذا الخلاف حين وجد وحين امتد
لف حوله آله ، ولف حول آله غيرهم ، أن ونى الأهل لم ين غير
الأهل ، وأن ونى غير الأهل حركهم له الأهل ، خلاف اعتمد على
سببين وكان هذا السبب الثانى - نعى هؤلاء المؤمنين بهذا الحق
من غير أهله - أقوى السببين ، وهو الذى مد فى أجل هذا الخلاف ،
وهو الذى مكن لهذا الخلاف ، لينصر بيتا على بيت . ولو أن هذا
السبب الثانى فتر أو وهن لما تهيا للسبب الأول أن يمتد ويبقى ،
ولا قدر له أن يعيش ليبقى فاترا ضعيفا لا يعدو أن يتمثل فى كلمات
لا أفعال .

ولكن بقضاء آل هذا الحق على حقهم لا يحيدون عنه أعطى
المؤمنين به البقاء عليه وأعطاهم القوة ، قلو استكان أصحاب الحق
ورضوا غير حقهم لفتوا فى عضد الداعين ، ولما وجد الداعون لدعوتهم
سبيلا ولا تأييدا .

وهكذا تميزت هذه الدعوة بالصفات التي كتبت لها البقاء ،
فلقد استحالت عقيدة لها قدسيتها في نفوس الداعين ، ولها قدسيتها
في نفوس أصحابها . من أجل ذلك عبرت على هامات الأيام لا يردّها
ارهاب ولا يثنيها عنف ، ولا يهون منها أغراء ، ولا يصرفها وعد
أو وعيد .

٤

ويموت ابن الحنفية بعد أن أقامه المؤمنون به اماما عليهم ،
ما كان يعنيهم أنه أيد دعوتهم أو لم يؤيدها ، وما كان يعنيهم أنه
حامل معهم رأيتهما أو غير حامل ، بل لقد قنعوا بأن يجدوا من
يلتفون حوله ، ومن ينادون باسمه ، ومن يفيدون من شخصه ،
وهكذا كانت تلك الفترة ، التي كان فيها ابن الحنفية اماما ، من
تلك الفترات التي حمل فيها المؤمنون بالدعوة أكثر مما حمل
أهلها . وما استوت فترات الدعوة بل كان منها شيء لهذا الذي
كان في حياة ابن الحنفية ، وكان منها شيء يخالف الذي كان في
حياة ابن الحنفية . حمل منه أهل الحق أكثر مما حمل الداعون
اليه ، وكان منها شيء استوى فيه نصيب هؤلاء ونصيب هؤلاء .
وما بنا أن نرمي ابن الحنفية بأنه كان حربا على الدعوة وكان
لا يؤيدها ، فما من شك في أن ابن الحنفية كان على رضى بها ، وكان
على حذر من عواقبها ، فوقف منها موقف الراغب الحذر يملأ عليه
حذره ، ولقد كان حذره فوق رغبته ، من أجل ذلك ترك المختار
لابن الزبير يحاربه ، كما ترك عبد الملك بن مروان هذين الخارجين
عليه يقتتلان . ولكن عبد الملك حين فعل ما فعل كان ينبغي أن
يضعف هذا ويضعف ذاك ، فإذا ما قضى أحدهما على صاحبه
انفرد له عبد الملك يقضى عليه . من أجل ذلك ما كاد يفكك ابن
الزبير بالمختار حتى فكك عبد الملك بابن الزبير وعاد اليه
سلطانه كاملا .

وكانني بآبن الحنفية كان قد أملى عليه حذره أن يفعل فعل عبد الملك على صورة أخرى ، فترك هو الآخر عبد الله بن الزبير للمختار يقاتله ، وكانني به كان يقدر ظفر المختار بآبن الزبير ، وكانني به كان يقدر حين يظفر المختار أن يجاهر بما يخفى ، إذ عندها يكون أملك لأمره ، وأقوى بهذا الجيش جيش المختار الذي كتب له النصر .

وهو لا شك حذر أملاه هذا الدرس القاسى الذى تلقاه ابن الحنفية من مقتل الحسين ، فلقد ظهر الكوفيون معه أولا ثم نكسوا على أعقابهم ثانيا ، وما أراد ابن الحنفية أن يدخل التجربة التى دخلها الحسين من أولها ، ولكنه أراد أن يدخلها من آخرها . من أجل هذا تلبث . ولقد حفظ عليه تلبثه حياته ، ولم يعرضه لمحنة ، كما قد حفظ تلبثه هذا للدعوة بقاءها ، فما كان قتل المختار — كما قلت لك — إلا اضعافا لسبب من سببى الدعوة ، وهى باقية مابقى لها السببان ، أو بقى لها سبب منهما ، ولعل ابن الحنفية لو ظهر فقتل لجر ذلك الى اضعاف السببين معا ، وجر ذلك عبد الملك الى قتل ابن الحنفية وقتل جملة معه من آله ، فتكون النكبة نكبتين . نكبة فى آل الحق ونكبة فى المؤمنين بالحق ، قد تجاوز المدى فتسبب اساءة تعوق الدعوة . وحين تجتمع هاتان النكبتان على الدعوة . قد تشدانها فى مهدها ، وقد تدفنانها عمرا طويلا .

بهذا نفس ما كان من ابن الحنفية لا تؤوله تأويلا يسبب اليه . فما من شك فى أنه كان يملك مع الهاشميين إيمانا بحقه وحققهم ، ولكنه كان يملك مع هذا الايمان هذا الحذر الكثير الذى جعل نفرا يؤولونه تأويلا آخر لا يرضى .

هذا الى أن المختار حمل الدعوة أغراضا تبعد بها عن المنهج الدينى السليم ، وكان دخول ابن الحنفية معه تصديقا منه بهذا الذى يقوله المختار . وما نظن ابن الحنفية أن كسب الحرب كان سيكسب الناس فى ظل ما يقوله المختار عنه ، بل كان سرعان ما سيخسر الناس ، ويخسر ثمرة النصر ، وتعود الدعوة باطلا من انبطلان ، ويعود هذا البيت الهاشمى وليس له حق يجمع الناس عليه .

ولقد صدق ابن الحنفية حذسه ، ان كان هذا حذسه ، فلقد تنكر الناس لدعوة المختار ، ولكنهم لم يتنكروا لهذا البيت ، فما ان ظهر ابنه أبو هاشم حتى التفوا حوله واتخذوه اماما يدعون له ، غير مباليين بفلو المختار في الدعوة لأبيه ابن الحنفية ، حين ادعى انه مالميس لابن

وحمل أبو هاشم الدعوة وكان الامام ، يلقاه الشيعة ويلقاهم هو ، يخفي الدعوة ويخفونها ، ويدعو معهم سرا ويدعون هم معه سرا ، وفي رموسهم جميعا هذا الماضي كله بعبره وعظاته ودروسه ، يفيدون مما لهم من سابقات في القرابة والاجهاد ، ويفيدون مما كان لخصمتهم ضدهم من تنكيل بهم ، لا ينسون به كربلاء بوخشيتها وقسوتها ، فلقد كانت لهم نعم العون ونعم السبب ، ولكنهم على هذا كانوا حذرين يسعون على حذر ويدعون على حذر .

وينزل أبو هاشم على سليمان بن عبد الملك ضيفا في دمشق ، ما نزل أبو هاشم بسليمان عن ارادة منه لذلك النزول ، ولكنه نزل به عن دعوة كانت من سليمان اليه ، ولم يشأ أبو هاشم أن يرفض دعوة سليمان فيتغير عليه سليمان . ولكنه قبلها ليؤنس بها سليمان ويزيل الوحشة من قلبه . هكذا ظن أبو هاشم فقبل الدعوة ، ولغير ما ظن أبو هاشم كان يدبر سليمان . فلقد كان أبو هاشم يدبر لامره على ضرورة وكان سليمان يدبر لامره على صورة أخرى . كان أبو هاشم يريد أن يصرف عنه سليمان بملاينته له ، وكان سليمان يريد أن يتمكن من أبي هاشم بملاينته له . وكما احتاط أبو هاشم احتاط سليمان ، وكانت حيلة سليمان أبعد من حيلة أبي هاشم . ولقد خرج أبو هاشم عن سليمان لم يلق كيدا فظن انه غلب بحيلته حيلة سليمان ، وما ظن أبو هاشم أن سليمان كان أباح منه حيلة حين لم ينل منه في حضرته فيضم الى ما يؤخذ على الأمويين تكرا جديدا ينضم الى هذا التكر الباقي لهم في رموس الناس وفي قلوبهم عن كربلاء . بل لقد خلى سليمان أبا هاشم ليخرج مطمئنا كما دخل

مطمئنا ، حتى اذا ما كان أبو هاشم ببعض الطريق عرض له رجل من الرجال لم يثر فى نفس أبى هاشم شكاً ، فأنس به أبو هاشم ونزل عليه يقبل قراه ، فاذا هذا القرى يحمل السم ، واذا السم يقرؤه جوف أبى هاشم ، واذا أبو هاشم يحس ألم السم فى جوفه مخرجه من عند هذا الرجل ، ويحس أنه ميت ، ويحس أن حيلة سليمان قد غلبت حيلته .

وحين عزت على أبى هاشم نفسه عزت عليه الدعوة التى يحملها ، وحين أحس أبو هاشم أنه ميت لم يرد لهذه الدعوة أن تموت ، وحين أحس أنه ذاهب لم يرد لهذه الدعوة أن تذهب ، وحين أحس أنه لم يحتط لنفسه أراد أن يحتاط لهذه الامانة التى يحملها .

وهكذا كان هؤلاء الناس كبارا تهون عليهم نفوسهم ولا تهون عليهم أماناتهم ، فإن خسروا حياتهم لم يحبوا أن يخسروا أمانتهم ، من أجل ذلك عرج أبو هاشم الى الحميمة - قرية صغيرة الى الجنوب من البحر الميت على مقربة من العقبة - وكان بها منزل محمد بن عبد الله بن العباس .

فقد رأى أبو هاشم ان أولى الناس بحمل هذه الدعوة عنه محمد بن علي : وكان أقرب الناس اليه فى طريقه هذا الذى يسلكه لا ندري الأولى نزل أبو هاشم عن دعوته لمحمد بن علي ، لأنه رآه أقدر عليها من غيره من بنى أعمامه ، أم للثانية وأن أبا هاشم وجه الشقة بينه وبين بنى عمه بعيدة وخاف أن يدركه الموت دون أن يوصى ، وخاف ان مات دون أن يوصى اختلف بنو عمه عليها من بعده . ولهذا أثر بها أقرب الناس اليه مكانا لا قرابة ، فعرج على محمد يوصى بها اليه .

ولعل سببا آخر يتضاف الى هذين السببين هو ذلك الخلاف فى رأى بين الشيعة الكيسانية ، شيعة ابن الحنفية وابنه أبى هاشم ، وبين شيعة بنى عمه من أولاد فاطمة . وعلى أية حال فما منع نزول أبى هاشم عن حقه فى هذا الأمر بنى عمه من أولاد فاطمة عن أن يهبوا مطالبين به من بعده ، وأن يخرجوا على العباسيين بعد أن استقام لهم الأمر مطالبين بهذا الحق ، وأن يظلموا على أيدي العباسيين كما ظلموا من قبل على أيدي الأمويين .

وهكذا تحولت الامامة من بيت الى بيت . ولكن البيتين على هذا كانا على بعد قريب بينهما ، فهما ينتهيان الى هاشم ، وهاشم لهما جد ، أعقب هاشم : عبد المطلب ، وأعقب عبد المطلب ، العباس وأبا طالب وعبد الله ، وعن العباس انحدر محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس ، الذي نزل به أبو هاشم عن الامامة ، ومن صلب أبي طالب كان علي الامام الأول الذي اجتمعت عليه كلمة الهاشميين ، ومضى أبناؤه يحملونها من بعده - كما مر بك - الى أن انتهت الى أبي هاشم . وأنجب عبد الله أكرم البشر على الله ، ورسوله اليهم ، وبه اجتمع العز للهاشميين .

وكان علي قد أصبح الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوج فاطمة ، وكان له منها ولداه الحسن والحسين ، وكان لعل من خولة بنت جعفر الحنفية : محمد الذي نسب الى أمه الحنفية . ولقد انتهى نسل أبي هاشم بموته ، ولكن نسل الحسن لم يكن قد انتهى عند موت أبي هاشم ، فلقد امتد شيئا ، إذ أعقب الحسن ولدين هما محمد والحسن ، ومات محمد دون أن يعقب ، وأعقب الحسن ابن الحسن : عبد الله ، وأعقب عبد الله أولادا أربعة هم : محمد ، وإبراهيم ، ويحيى ، وادريس .

وكذلك لم يكن نسل الحسين قد انتهى عند موت أبي هاشم ، فلقد أعقب الحسين ولدا هو علي زين العابدين ، وعن زين العابدين انحدر محمد الباقر (١١٣ هـ) وزيد (١٢٢ هـ) ، وعن محمد الباقر انحدر جعفر الصادق (١٤٨ هـ) وعن زيد انحدر يحيى . وأعقب جعفر الصادق ولدين هما موسى الكاظم (١٨٣ هـ) واسماعيل . وعن موسى الكاظم انحدر علي الرضى (٢٠٢ هـ) وعنه انحدر محمد النجواد (٢٢٠ هـ) وعنه انحدر علي الهادى (٢٥٤ هـ) وعنه انحدر الحسن العسكري (٢٦٠ هـ) وعنه انحدر محمد المنتظر ، وقد اختفى سنة (٢٦٠ هـ) .

هؤلاء هم عقب جعفر من ولده موسى الكاظم ، وأما عقبه من
ولده اسماعيل فهم : محمد ، وعن محمد انحدر عبيد الله المهدي
(٣٢٢ هـ) .

فانتقال الدعوة الى ولد العباس حين أسلمها أبو هاشم الى
محمد بن علي بن عبيد الله بن العباس ، لم يكن عن جذب في بني
آبيه ، نعتي أب أبي هاشم علي بن أبي طالب ، وإنما كان - فيما
يظن - لهذا الخلاف بين رأي أبي هاشم ورأي بني آبيه . ولعل أبا
هاشم حين بعد بأمه عن بني آبيه لم يرضه إلا أن ينزل عنها - أي
عن الإمامة - لبني عمه ، ولعل هذا البعد بالأم كان هو السبب في
هذا النزول ولا سبب غيره ، فبتو على من فاطمة كانوا يملكون
الدعوة من طريق هذا الطرف الذي يصلهم بآبائهم علي ، وهو
هاشمي وله سابقته وفضله ، وذلك الطرف الذي يصلهم برسول
الله صلى الله عليه وسلم ، واليه ينتهي هذا الحق كله ، على حين
كان يملك أبو هاشم هذه الدعوة من طرف واحد فحسب ، وهو
هذا الطرف الذي يصله بجده علي بن أبي طالب ، ولقد كان
الناس من أولاد فاطمة من علي غيرهم من ولده الحنفية من علي .
من أجل هذا التف الناس بالحسين بعد أن خرج من الدعوة
الحسين أول الأمر ، وحين قتل الحسين التف نفر بابن الحنفية
على تلك الصورة التي مرت بك ، وعاش ابن الحنفية لا يعطى الدعوة
إلا بقدر ، يمنعه الحذر من أن يستمر .

ولكن ثمة شيئا يجب أن نذكره من قبل أن ننسأه : هو أن
مقتل الحسين مع جملة من آله كان قد فت في عهد شيعية
الحسين فالتفتوا عن الدنيا الى الدين ، وأرادوا الزعامة الدينية
بعد أن اعجزتهم الزعامة الدنيوية ، ولعل الذي قعد بشيعية
الحسين عن الدنيا هو الذي جعل ابن الحنفية على هذا الحذر
الكبير ، لا يدفع بنفسه الى الحياة كما دفع اليها بنفسه الحسين ،
ولولا أن ابن الحنفية رزق رجلا ذا اطماع ما كان اماما وما كانت
حواله دعوة دنيوية الى جانب الدعوة الدينية .

فلقد كان المختار بن أبي عبيد الثقفي رجل حياة قبل أن

يكون رجل دين ، سلك الى السلطان كل سبيل ، وخطب ود كثير
 من ذوى الجاه ، لا يعرف الثبات على رأي ، ولقد وصل حبله بحبل
 الأمويين فلم ينل ما يخب ، ثم وصل حبله بحبل ابن الزبير حين
 أراد ابن الزبير الأمر لنفسه يبغي أن يكون وزيره ، ولكن ابن
 الزبير كان قليل انشقة به لما عرفه عنه من تقلبه ، وحين خسر
 المختار هذا الميدان وذا لك قصد الى الكوفة ، وكانت الكوفة عندها قد
 اجتمع فيها قوم على الندم لخذلانهم الحسين وفتورهم عن نصرته .
 وتمكن هذا الندم من نفوسهم حتى ملأها حسرة وملأها حمية ،
 وإذا هم بعد لهذا يجمعون على الأخذ بشار الحسين وأهل بيته ،
 وإذا هم يتحاضرون فيمنا بينهم على بذل الاموال والانفس ، وكانت
 معهم جماعة سمعوا انفسهم بالتوايين .
 وحين قصد المختار الكوفة قصدتها ليفيد من اجتماع
 التوايين على رأيهم هذا . يريد أن يتخذ منهم أعوانا على ما يريد
 وم تصبو اليه نفسه ، فينال من الأمويين بعد أن أخفق معهم ،
 وينال من ابن الزبير بعد أن أبى عليه ابن الزبير ما يطمع هو فيه .
 وكان لابد لهؤلاء الذين اجتمعوا ليشاوروا للحسين وأهل بيته
 من امام يجمعون عليه ويلتفون حوله . وشيعة الحسين كانت قد
 صدقت عن الزعامة الدنيوية شيئا بعد مقتل الحسين واجتثاث
 بالزعامة الدينية الى أن يقضى الله أمرا ، فلم يجد المختار في الانحياز
 اليهم ما يفتيه ، ولعله حين أراد أن يصل حبله بحبلهم لم يجد
 عندهم السخاء بما يطمع فيه . ولعله وجدهم لا يثقون به كما لم
 يثق به ابن الزبير . من أجل ذلك التفت الى ابن الحنفية يريد أنه
 يجعله على رأس هذه الدعوة . وعلى رأس هذه الجماعة ، يظهر
 أنه أمينه ويظهر أنه وزيره .
 وما أنسى المختار هذا الاخساس المتباين للناس ، احساسهم
 للظنين وآله ، واحساسهم لابن الحنفية وولده . فهو من غير
 شك استغل عزلة ابن الحنفية شيئا ليكون معه صاحب فضل
 وصاحب أثر .
 ولقد أفلح المختار بما كسب أولا حين طرد عامل ابن الزبير

عين الكوفة . وحين انتصر على عبيد الله بن زياد عامل الأمويين على الكوفة . فرغبت الشيعة فيه والتفت حوله . وما من شك في أن هذا أغرى ابن الحنفية شيئا بالمختار فتركه يدعو له ، وليث هو على تلك الحال من الحذر ينتظر . وكان أن قتل المختار - كما هو يك - فخر ابن الحنفية النتيجة التي كان يرقبها ، ولكنه لم يضر الدعوة التي أنشأها المختار له ، والتي ورثها عنه ابنه أبو هاشم .

ولكن شيعة الحسين قد خسرت شيئا بدعوة المختار . فقد أخرجها المختار من أيديهم ، أخرجها عن قصد حين دعا لابن الحنفية ، وأخرجها عن غير قصد حين نزل عنها أبو هاشم لمحمد بن عبد الله ابن العباس ، فلو لم تنته هذه الدعوة إلى ابن الحنفية ما انتهت إلى أبي هاشم . ولا ملك أبو هاشم أن ينزل عنها لمحمد بن علي .

٧

وحين أوصى أبو هاشم إلى محمد بن علي لم يرده وحده بهذا الأمر ، بل أراد هذا الأمر له ولولده من بعده ، يعني أن ينقله كله إلى بني العباس . فكان مما قال له : هذا أمر أنت أول من يقوم به ولوليك آخره .

وكان أبو هاشم يعلم أن الأمر ليس أوله كسباً . بل أوله جهاد ، وكان يعلم أن الأمويين ينتهوا . وأن لا بد للداعين من صبر على الكفاح . من أجل ذلك أغرى محمد بن علي بهذا الكفاح ، بعد أن أغراه بضمان ثمرة هذا الكفاح ولده .

ومن أجل ذلك طلب أبو هاشم من محمد بن علي أن يبدأ بنشر الدعوة على رأس السنة المتممة للمائة . ولقد كان موت أبي هاشم في سنة ٩٨ هـ . ومن أجل ذلك أوصى أبو هاشم بأن تكون الإمامة لإبراهيم بن محمد بعد محمد .

فعل هذا أبو هاشم ليضمن للدعوة فرصة للتمهيد ، وفعل ذلك ليضمن للدعوة الاستمرار ، وفعل هذا ليقيم بيتاً على الكفاح

لم يقتل منه الأحداث ما نالت من بنى أبيه ، وفعل ذلك ليشأ من
الأمويين على غدرهم به على يد سليمان . وكان لا يريد أن يفوته هذا
الشأ ، فاختار هذا البيت الذى رآه قويا . لا يجعل الأمر لمحمد
وخذته فينى محمد ولا يجد ، بل جعله له ولولده من بعده ليمضوا
على الطريق كلهم .

وكانى بأبى هاشم هو الآخر بعد ما أحس الموت ، وبعد ما
أحس الحق على سليمان وعلى الأمويين مع سليمان - أو بعدما أحس
أن بنى أبيه قد رغبوا عن الزعامة الدنيوية الى الزعامة الدينية -
قد رأى رأى المختار حين اختار أباه ، فاختار هو هذا البيت العباسى
يجعل الأمر لمحمد بن على ثم لولده من بعده ، يستملى من هذا كله .
غير أن أعقاب الحسين الذين خالهم أبو هاشم قد استكانوا
شيئا أخذوا يظهرون من بعده شيئا . فلقد تهيأ زيد بن على زين
العابدین للدعوة لنفسه . أخذ يدعو سرا حتى اذا ما نذر به هشام
ابن عبد الملك أظهر ما كان يسر وبادى هشاما بالعداوة . والتف
حول زيد نفر من أهل الكوفة . وخرج بهم زيد لحرب هشام .
ولكنهم سرعان ما انخلوا عنه كما انخلوا عن جده الحسين .
واذا زيد يلقى جيش هشام فى نفر قليل بقوا معه . وقاتل زيد الى
أن قتل . وكان ما فعل به بعد مقتله أشنع مما فعل بجده الحسين
بعد مقتله . فاذا هو يحرق ، واذا هو تضرب جثته بالعصى حتى
تصير رمادا ، واذا هذا الرماد يدرى فى الهواء ويلقى به فى الماء .
وبعد مقتل زيد هب ابنه يحيى ، وبايع له نفر قاتلوا معه ،
غير أن نصيبه لم يكن خيرا من نصيب أبيه . فلقد قتل هو الآخر
ثم قطع رأسه ، ثم صلب ثم أجرق ، ثم كانت جثته رمادا تذروه
الرياح .

ولكننا لا ننسى أن تحرك عقب الحسين للثورة ، وعدلهم عن
الانكماش ، كان بعد أن تهيأ العباسيون للأمر وخرجوا اليه . وكانى
بأعقاب الحسين قد أحسوا خطر ما مالوا اليه حين رغبوا عن الدنيا
الى الدين . وكانى بهم قد أحسوا أن العباسيين على وشك أن
يظفروا بالدنيا دونهم . من أجل ذلك التفتوا عما رأوه الى شئ
آخر يروونه . فتحرك زيد ثم تحرك من بعده ابنه يحيى ، مدفوعين

الى الأمر فى عجلة ، حرصا على أن ينالاه دون العباسيين ، وخوفا من أن يستأثر به العباسيون دونهم ، لا يعنيهم أن أبا هاشم قد نزل عنه للعباسيين ، ولكن يعنيهم أنهم أصحابه وأنهم أولى به ، ويعنيهم أنهم لو تلبثوا عنده شيئا أقلت من أيديهم الى أيدي العباسيين .

وفى ظل هذه العجلة الملحة خرج زيد وخرج يحيى ، لا يجد زيد كما لم يجد يحيى فسحة من الوقت ليدبرا لأمرهما ، كما أخذ العباسيون يدبرون له ، مغرورين بمن التف حولهما بين قلة قليلة ، مخدوعين عما يملك خصمهما من كثرة كثيرة وعتاد كبير ، من أجل ذلك أخفق زيد كما أخفق ابنه يحيى ، ولكنهما على كل حال قد أضافا بمقتلهما سببين جديدين فى أيدي العباسيين فينتفعون بهما ويفيدون منهما ، ثم هما قد شغلا بهما الأمويين عن ثقب العباسيين ، وهكذا أبى هذا البيت إلا أن يحمل عبء التضحية كله ويترك العباسيين يملكون عنه الغنم كله .



وعلى العكس مما كان العلويون كان العباسيون ، فلقد رأى محمد بن على أن الأمر يعوزه الحيلة ويعوزه الحذر ، ولم ينس هذا البيت الجديد على الدعوة ، فزاده ذلك حيلة وزاده حذرا ، ولم ينس محمد أن المفاجأة خير من ، فأنضافت الى حيلته حيلة وانضم الى حذره حذر .

من أجل هذا وذاك بدأ محمد بدعوة لآل البيت لا يستلحق أحدا حتى لا يتفرق الناس عليه ، ومن أجل ذلك حاط محمد بدعوته بالاعتذار لا بالإعلان ليأمن شر الأمويين عليها . ولقد قصد محمد أول ما قصد بدعوته أهل الكوفة ، أى الكوفة مهدا للشيعة ويرى أهلها أسرع الى التبشير ، نحس ذلك فى كلمته الى دعائه حين قال لهم :

... أما الكوفة وسوادها فشيعة على ، وأما البصرة فعثمانية تدين بانكف ، وما الجزيرة فحرورية - يريد الخسوارج الذين خرجوا على علي فيها فنسبوا إليها - وأما أهل الشبام فلا يعرفون غير طاعة معاوية وطاعة بنى أمية ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجنود الظاهر .

لأجل هذا وجده اختار محمد بن علي الكوفة ، ولكنه اختارها أيضا لسبب آخر لا يقل عن هذا السبب الأول خطرا ، فلقد كانت الكوفة تبغض الأمويين لقبسوتهم عليهم واستبدادهم بهم . فلقد كان الأمويون يعرفون الكوفيين أنصارا للعلويين وكانوا معهم على وجل ، من أجل ذلك قسوا عليهم واستبدوا بهم .

فلهذا وذاك قصد محمد بن علي بدعوته الكوفة لا يعدل عنها إلى غيرها ، وخرج دعاته من النخيلة إلى خراسان سرا يظهرين غير ما خرجوا إليه ، منهم من خرج خروج التجار ، ومنهم من خرج خروج الحجاج ينغي مكة .

وما كانت مثل هذه الدعوة بالأمر الهين ، لذلك اختار لها رجال لهم دهاء ولهم خيلة . ولكن شيئا آخر انتفعت به الدعوة غير هذا هو أنها بدأت في عهد عمر بن العزيز ، وكان عمر عادلا لا يرى العنف بالناس ، متسامحا لا يجيز أن يستمر الأمويون على لعن علي في خطبهم من فوق المنابر فأفصح عدله وتسامحه للدعاة أن يقولوا شبه آمنين ، وأفصح عدله وتسامحه للناس أن يسمعوا مطمئنين .

وما أدركت المتية محمد بن علي في السنة الخامسة والعشرين بعد المائة إلا بعد أن قطعت الدعوة أشواطا بعيدة ، فحمل ابنه إبراهيم من بعده العبء صادقا ، يعينه على أمره كثرة ممن انضموا إليه ، ويعينه على أمره تفرق كلمة الأمويين وانحلال قواهم . وحين أوشكت السنة الثانية والثلاثون بعد المائة أن تنتهي كان ملك الأمويين هو الآخر يوشك أن ينتهي ، وإذا العلم الأسود وهو شعار العباسيين يرفرف على ربوع دمشق ، وتداول دولة

لتحل مكانها دولة • وكانت تلك الدولة الدائلة هي دولة الأمويين ،
وكانت هذه الدولة الجديدة هي دولة العباسيين •

كان ذلك بعد موت أبي هاشم بما يقرب من خمسة وثلاثين
عاما ، مرت تلك الأعوام كلها للتمهيد للدعوة والتمكين لها • ولكنها
مرت أيضا توهن من سلطان الأمويين وتهز من كيانهم • فلقد
اختلفوا على أنفسهم مع هذه الأعوام التي اتحدت فيها كلمة الدعوة
وانتظمت ، وكانت الأعوام تعطى تقريق وتمنع عن فريق ، ولو أن
الأعوام مضت تعطى الفريقين معا لمال الأمد على ظهور الدعوة ،
ولجر طول الأمد الى اخفاقها ، فالدعوات أقتل الأشياء لها أن
يطول أمد انطوائها . وما انطوت الدعوة العباسية هذه الفترة كلها
منذ مات أبو هاشم سنة ٩٨ هـ الى حين كتب لها النصر الحاسم
سنة ١٣٢ هـ . لكنها كانت مع مرور الأعوام تخرج من طور الى
طور ، ومن سر الى ما يقرب من جهر ، ومما يقرب من جهر الى
جهر ، فكانت هذه الاطوار المختلفة سببا هون على الداعين طول
الأمد ، وهون على الناس طول الانتظار •

وما ذاق حلاوة النصر محمد بن علي ولا ذاقه ابنه ابراهيم من
بعمده ، ولكن فاز بعقبى هذا الكفاح الطويل ابن آخر لمحمد بن علي
هو أبو العباس السفاح ، وكان مولده سنة ١٠٤ من الهجرة ، وكان
يراه أبوه صاحب الأمر ، بهذا أوهم نفسه وأوهم الشيعة من حوله ،
أوهم نفسه ليعود نفسه الصبر وهو يأمل ، وأوهم الناس ليحملهم
معه على الصبر دون أن يملوا ، اذ كان على الناس أن يصبروا
للدعوة ومرارتها التي أن يشب الوليد ، والتي أن يبلغ مبلغ الرجال
أعوام أراد محمد أن يقطعها على الناس مملوءة أملا ومملوءة رجاء ،
فيكسبهم على الجهاد الطويل اثناق • وما نطن محمدا كان يؤمن
بما قال للناس ، ولا كان يعلم الغيب ، ولكنه كان ذكيا وكان لبقا
وكان جد خبير بتحريك النفوس وكسب القلوب وإدارة دفة الامور •

ويلى أبو العباس الخلافة الاولى لتلك الدولة الجديدة ، يليها
 جرف نفسه ما فيها من ترات كثيرة خلفها الأمويون حين استأثروا
 بالملك ، وحين كان الملك فى أيديهم ، لا يحسوها من صهره أن الملك
 صار اليه . وبالكأس التى سقى بها الهاشميون سقى أبو العباس
 الأمويين قاسرف فى القتل ، وسفح دماء كثيرة ، فسموه السفاح
 لذلك .

أراد أبو العباس السفاح أن يؤمن لنفسه فتجاوز الحد فى
 ذلك التأمين ، ولقد فعل الأمويون شيئاً كان من ورائه من يتلفه
 ليفيه منه كى يزحزحهم عن مكانهم ويسترد ما سلبوه . ولكن
 الأمويين بعد هذه الدولة وبعد هذه النكبة التى أودت بهذه الدولة ،
 ما كان لهم حق يجتمعون عليه مثل ذلك الحق الذى اجتمع عليه
 الهاشميون ، فلقد دخلوا الى الحكم عن طريق اصطنعوها ،
 وواتتهم الظروف كما مر بك . فما أن دخلوا الى الحكم حتى شقوا
 أنفسهم شيئاً ، وكتوا على أن يصانعوها الهاشميين لينالوا مع
 الحكم خضوع أصحابه لهم ليشفوا أنفسهم شفاء ثانياً بهذا
 الخضوع ، وحين عز عليهم الهاشميون واستعصوا قتلوهم ليسلم
 لهم أمرهم ، وراوا نار الهاشميين كلما أخذوها اتقدت فهلعوا ،
 وخافوا على ملكهم قاسرفوا فى العذاب ومالوا الى الفدر .
 فللخوف من الهاشميين نال الأمويون من الهاشميين ، وللانتقام
 من الأمويين نال الهاشميون من الأمويين ، ولرد العدوان عن النفس
 قتل الأمويون الهاشميين ، ولشفاء النفس قتل الهاشميون الأمويين .
 ثم زاد الهاشميون فقتلوا الأمويين لالشيء من هذا ولاشيء من ذلك .
 وقد حسب أبو العباس أنه أرضى العلويين حين أرضى نفسه
 بقتل خصومهم وخصومه ، رضى يمحو ما فى نفس العلويين من تطلع
 الى الحكم . ولكنه أنسى أن الحكم شهوة من شهوات النفس مثل
 الجوع والظما لا يسدها الا أن تطعمه وتسقيه ، فكما لا يفتنى

الجائع وانظامىء عن الطعام والماء الا بما يملأ البطن فيشبع ويروى
اللسان فيتدى ، كذلك لا يغنى ظائب التحكم الا أن يحكم ليشبع .
ولقد حاول الأمويون مثل هذه مع الهاشميين فما أقنعوهم
ولا صرفوهم عن حقهم . بذلوا لهم المال فوجدوا المال لا يشبع
تلك الشهوة ، وافسحوا لهم في الأكرام فوجدوا الأكرام وان غلا
لا يشبع تلك الشهوة ، واستأنسوهم فامعنوا في الأيناس ، فوجدوا
الآيناس وان زاد لا يشبع تلك الشهوة . وحين فقدوا أسباب
السلم أخذوا في حربهم وقتلهم وتشريدهم وتعذيبهم . فوجدوا
الارهاب كالترغيب لا يطفى تلك الشهوة .

ولكن الحكم كما هو عزيز على من يطمع فيه عزيز على من هو
فيه . من أجل ذلك حرص عليه الأمويون حين بات في أيديهم
حرص الهاشميين عليه حين فاتهم وخرج من أيديهم .
وكما وقف الهاشميون جميعا من الأمويين وقف العلويون
وحدهم من العباسيين ، وكما تطلع الهاشميون جميعا الى الحكم
ينتزعونه من أيدي الأمويين ، تطلع العلويون وحدهم الى الحكم
ينتزعونه من أيدي العباسيين .

وهكذا كتب على العلويين من بين الهاشميين أن يدوروا
العذاب مرة ثانية وأن تمتد بهم المحنة الى أمد جديد . يتلقف منهم
الحكم فى المرة الأولى الأمويون بأسباب هينة ، ويتلقف منهم الحكم
فى المرة الثانية العباسيون بأسباب هينة ، وكما لم يقصروا فى
الأولى لم يقصروا فى الثانية ، لكنهم فى الأولى كانوا كثرة ، إذ
كانوا هاشميين ، وهم فى هذه قلة إذ كانوا علويين ، وكانوا فى
الأولى على أول الطريق ، فكان شغل الناس بهم كبيرا ، وهم فى
الثانية قد قطعوا من الطريق أمية لا فشقوا على أنفسهم وشقوا على
الناس ، ولم يبت شغل الناس بهم كبيرا .

ولكنهم على هذا كله لم يملوا ولم يعمل الناس معهم ، وأخذوا
يدبرون لزحزحة بنى عمهم واسترداد حقهم منهم .
ولكن العباسيين ما آمنوا بأن الذى صار فى أيديهم ليس حقا
لهم ، ومن قبلهم ما آمن الأمويون بأن الذى صار فى أيديهم ليس
حقا لهم . وكما حرص الأمويون على هذا اتدى عدوه حقا حرص

العباسيون على هذا الذي عدوه حقنا ، وكما عادى الأمويون
الهاشميين لخروجهم عليهم عادى العباسيون العلويين لخروجهم
عليهم . وكانت الخصومة هنا كما كنت هناك لا ترجح ، كما لم
ترجح سابقتها ، وانسيت القرابات هنا كما أنسيت هناك ،
لا يذكر الا الحكم فهو أقرب الى النفس من كل قريب وأعر على
النفس من كل عزيز .

فلقد أخذ محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي
يدعو لنفسه سرا ، فالتفت حوله ناس ، حتى اذا ما كثر انصاره
ظهر يريد الأمر لنفسه وتلقب بأمير المؤمنين ، ولقد دان له أهل
مكة ، ودان له أهل المدينة .

وما انتفع النفس الزكية بخروجه ، ولا انتفع بامارته ،
فسترعان ما وقعت عليه يد عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن
عبد الله بن عباس وقتله .

فتلقف الدعوة من بعد النفس الزكية أخوه ابراهيم . وكما
لم يهيب ابراهيم لم يهيب الناس من حوله . فلقد كانت عقيدة كما
قلت لك ، يؤمن بها أهلها الايمان كله ، يؤمنون بها دينا ودنيا :
دينا يقيم اندنيا ودنيا تمهد السبيل لقيام الدين . ويؤمن بها
أصحاب أهلها الايمان كله ، يؤمنون بها هم الآخرون دينا ودنيا :
دينا يرونه قد تعطل حق من حقوقه ، وقد يغلو بعضهم ويقول :
ركن من أركانه ، ودنيا ، لأنهم كانوا طامعين يحبون الحياة
بمتاعها . ولا يحبونها مجردة عن متاعها .

من أجل ذلك هان على هؤلاء وهؤلاء الموت . هان على أهل
الدعوة لأنهم رأوها رسالة وهم حاملوها ، وهان على أصحابهم لأنهم
عدوا أنفسهم حفظة لهذه الرسالة ، حريصين عليها حرصهم على
نعيم الدارين .

وسرعان ما انضم الى ابراهيم كثيرون من ذوى الرأى والجاه
في البصرة . وكما أعان الإمام مالك أخاه محمدا من قبل على
المنصور فأفتى بنقض البيعة التي انعقدت للمنصور - لأنها أخذت
اغتنابا وآكره الناس عليها ، ففتح القلوب للشك في أمره ، وحرك
الأسنة بالنيل منه ، وعبد السبيل بذلك لمحمد كى ينادى بنفسه

أمراء المؤمنين ، وأطاح لثغر من الناس أن يلتفتوا به عن حجة - كعب
 أعان الإمام مالك محمدا هذا العون أعان الإمام أبو حنيفة إبراهيم
 أخاه ، ولكن الإمام مالكا ملك أن يفتى وتذبح عنه فتواه فيفيد منها
 الناس ، ويفيد منها محمد ، ولكن الإمام أبا حنيفة لم يملك غير أن
 يعين سرا ويؤيد سرا . ولكن هذا الذي كان يعد سرا كان أقرب إلى
 الجهر ، فما كان أحرص الداعين على تأييد إمام كآبي حنيفة ،
 لا يقول الا قالوا عنه ، ولا يشير الا أشاروا عنه ، وكأنه هو القائل
 وهو المشير لا يعدون هذا التكتم الذي بغاه غير الا يسمعه الناس
 متكلما ، وغير الا يراه الناس مشيرا .

لهذا كان جهرا ما أراده الإمام أبو حنيفة سرا . لم يسمع
 الناس أبا حنيفة يقول ولا رأوه يشير . ولكنهم سمعوا الناس
 يروون عنه ، ورأوا الناس يشيرون بإشارته . وما كذب أبو حنيفة
 من رواه عنه ، ولا من أشاروا ، فلم يكذب الناس الراوين عنه
 ولا المشيرين بما أشار .

وهكذا أفاد أبو حنيفة إبراهيم بعونه ، وهيباً أهل واسط
 والأهواز وقارس لأن يستجيبوا له ، والتف حول إبراهيم مؤيدونه
 ومستجيبون وناصرون .

غير أن ما أصاب محمدا أصاب إبراهيم ، لم يختلف القاتل
 ولم يختلف القتلة ، فلقد كان عيسى بن موسى هو الذي قتل محمدا .
 وكان عيسى بن موسى أيضا هو الذي قتل إبراهيم أخا محمدا .
 قتل إبراهيم وقتل محمدا في عام واحد سنة ١٤٥ هـ ، وقتل
 إبراهيم كما قتل محمدا قتلة نكراء .

وتهدأ الدعوة قليلا لتظهر مرة أخرى على يد الحسين بن علي
 ابن الحسن الحسن بن الحسن بن علي بالمدينة سنة ١٦٩ هـ .
 وكان الهادي عندها خليفة للعباسيين ، فيرسل الجيوش لحربه
 الحسين ، وتلقى جيوش الهادي الحسين قريبا من مكة ، وكان
 الحسين قد خرج من المدينة إلى مكة يدعو لنفسه ويهيب لأمره .
 وكان قد التف به ناس كثيرون ، منهم جملة كبيرة من أهله .
 وكانى بتلك السنين التي جاوزت العشرين - أي منذ أن
 قتل إبراهيم سنة ١٤٥ إلى أن ظهر الحسين سنة ١٦٩ هـ - قد

مكنت للحسين فزادت من ناصريه ، واكثرت من جنده ، فاذا هو يلقي جيش الهادي غير ضعيف ولا قليل عدده ، واذا الجيشان يقتتلان أشد قتال وأمره ، واذا المعركة تشتد لتشتد على الحسين ومن معه ، واذا من معه كمن كانوا مع غيره بالأمس يتكصون حين يلتقى الجمعان ، واذا الحسين في أهله بعد أن فر عنه أصحابه ، واذا كربلاء انتى قتل فيها الحسين الأكبر تتمثل في فخ - مكان يبعد عن مكة بستة أميال - الذي قتل فيه الحسين الأصغر ، واذا قتل فخ يبلغون عدد قتلى كربلاء ، واذا محنة فخ تحكى محنة كربلاء ، واذا الناس الذين هالتهم كربلاء تهولهم فخ ، واذا الشيعة مع فخ يكسبون سببا له قوة ذلك السبب الذي كسبوه في كربلاء . اثاره للنفوس ، وهزا للقلوب ، واشعالا للأفئدة .

وما كان أحوج الشيعة الى كربلاء أخرى يقيمون عليها وقيمون الناس معهم عليها . ولقد أعطت كربلاء الأولى فائدتها ، ولكن تلك الفائدة وقعت للعباسيين ولم تقع للعلويين ، فكان لابد للعلويين من كربلاء ثانية ليقيموا بها الدنيا معهم كما أقاموها من قبل ، على أن تكون لهم هم فائدتها .

وكأني بالعلويين ، رموا بأنفسهم في أتون الثورات لا احجام ولا خوف ولا اثناء على الرغم من تلك النذر التي كانت تسبق الاقدام ، يريدون بذلك أن يحمّلوا خصوم اليوم - أعنى العباسيين - كما حمّلوا خصوم الأمس - أعنى الأمويين - تبعات يفيد منها العلويون ويخسر خصومهم .

وكأني بالحسين بن علي بن الحسن أرادها على هذا الوجه الكتيب المفزع . أراد أن يجعل التشابه في الاسم يتبعه تشابه في الفعل ، وأراد أن يجعل التشابه في الفعل يتبعه تشابه في الاسم .

وقد تحقق للحسين بن علي بن الحسن ما أراد ، فاذا فخ بما وقع فيها قد أنست الناس كربلاء ، واذا الشعراء يقولون عن فخ كما قال سابقوهم عن كربلاء ، واذا شعر فخ ينسخ شبنم كربلاء ، واذا فخ تذكر واذا كربلاء تنسى .

وكما فات الامويين نفر من العلويين يوم كربلاء ، عاشقوا
ليحملوا العباء من بعد آبائهم ، فات العباسيين يوم فتح نفر من
العلويين ، فروا ليحملوا العباء عن اخوانهم الذين سبقوهم .
فلقد نجا يحيى بن عبد الله ونجا معه اخوه ادريس ، ليحملوا
العباء وليكونا شجتي في حلق العباسيين .
ولقد كانت فتح كما كانت كربلاء شيئا مذكورا ، من اجل
ذلك كان يحيى بن عبد الله شيئا مذكورا ، وكان ادريس من بعده
شيئا اشد ذكرا .

ففي ايام الرشيد (١٧٠ هـ - ١٩٢ هـ) ثار يحيى وثار معه
النديلم واذا اليمينيون بعدها في اثر انديلمين ينضمون الى يحيى .
واذا يحيى بالنديلم وباليمنيين قوة يخشى بأسها ويخاف ضررها .
واذا الرشيد في قوته وفي بأسه يخشى ويخاف ، واذا الرشيد يجمع
للفضل بن يحيى البرمكي جيشا قوامه خمسون الفا ، يريد أن يدفع
به لحزب يحيى بن عبد الله .

وكان الفضل بن يحيى البرمكي يعرف الحرب ويعرف شيئا
آخر الى جانب الحرب أنفع له ولجندة ، وأجنى على الخليفة ، كان
يعرف الحيلة ويعرف أنه ان أفلح فيها وفر عليه وعلى الناس عناء
ثقيل ، قد يمعن في الثقل فيودى به هو ويودى بالأساس ، كما
يوفر على الخليفة ما هو فوق هذا كله ، فقد يمعن هذا العناء في
الثقل فيخرج بالخليفة عن خلافته ، ويقلب الأمور رأسا على
عقب .

كان الفضل يعرف الحيلة كما يعرف الحرب ، وكان بالحيلة
أعرف ، من أجل ذلك خرج على رأس جيشه هذا الكبير يمهده به
للحيلة لا يمهده به للحرب ، خرج يستتر به حيلته حتى لا يقال عنه
انه يحتال عن ضعف ، وصاحب الحيلة ان لم يبد فوق حيلته لم
يبلغ بحيلته ما يريد ، وان بدا دون حيلته سقط وسقطت حيلته ،
وعاد وقد خسر فوق ما يريد .

وهكذا لقي الفضل يحيى قبل أن يلقي جيش الفضل جيش يحيى ، وكان أسلوب الفضل مع يحيى هو ذلك الأسلوب الذى انتهجه الناس من قبل ، ولا يزال الناس ينتهجونه الى اليوم حين يريدون أن يحتانوا ، وحين يريدون أن يصرفوا غيرهم عن شيء أو يضمومهم الى شيء ، أسلوب ليس فيه غير بسط الأمانى فسادا ، وبسط الترغيب واسعا ، فان لم يسف هذا ولا ذاك جاء الارهاب مكان الأمانى ، وجاء التخويف مكان الترغيب ، يساق هذا ويساق ذاك ، سوفا لا يثير النفس فتغضب ولا يغضب القلب فيأبى ، وعلى هذا كانت الحيلة شيئا سهلا حين نسمعها ، ولكنها شيء صعب حين نعملها ، وهى سلاح ان أحسنت استخدامه كسبت به فوق ما تكسب بالحرب ، وان أسأت استعماله خسرت به فوق ما تخسر فى الحرب .

ولقد كان الفضل بن يحيى رجل حيلة ، كما ذكرت لك ، وحسبه انه غرر برجل فى قدر يحيى فصرفه عما خرج له ، صرفه بتلك الوعود وتلك الأمانى التى صرف بها كثير غيره من قبل .

قد نقول : ان يحيى حين فر من فخ فر عنها بنفس فيها الجزع وفيها الهلع ، من أجل ذلك لم تقه يده على خيط الأمانى حتى استمسك به .

ولكننا نقول : ان يحيى لو كان الجزع الهلع لاستكان بعد أن فر وألقى بعد أن فجا ، ولكنه حين ثار دل على أن قراره كان ليعود ، وأن نجاحه حين نجا كان لينتقم .

وقد نقول : ان يحيى أحس ضعفه عن أن ينال من خصمه ، بعد ما رأى من تجمع خصمه له ، فى ذلك العدد الكبير والعتاد العظيم .

ولكننا نقول : ان الشيعة ما نظروا الى تكافؤ قواهم مع قوى خصمهم ، ولا ألقوا بالا الى أنهم قليل وعدوهم كثير ، ولو أنهم نظروا الى تلك وألقوا بالا الى هذه ما تحركوا ولا ثاروا .

ولقد كان جيش يحيى جيشا كبيرا قويا ، اجتمع به ليخرج ، وما جمعه هو لثمة أو رحلة .

ولكن الفضل كان داهية . وكان يحيى عاقلا ، ولكن دهاء الفضل غلب عقل يحيى ، ولو أن بين أيدينا ما قال الفضل وما قال يحيى لمكننا الاسباب حين تحكم ، ولكن هذا لن يعفينا من أن نذهب

بعيدا فنقول : نكاد نتهم الفضل بأنه ادعى ليحيى شيئا ، ونكاد نتهم الفضل بأنه أقسم أو حاول ان يقسم بالفضل على ما ادعى ، من أجل ذلك صدقه يحيى واستجاب له .

ولكننا نذهب بعيدا في اتهام يحيى فنقول : وهل يفعل المحتال المتداهى غير ما فعل الفضل ، ان صح أن الفضل فعل ما قذفناه به ؟ ثم نقول : كيف غاب هذا عن يحيى ؟

ولكننا نعود فنقول : لقد كان الأمر أجل من أن يرده يحيى ، ولقد كانت الحيلة أدق من أن ينكت نسجيا يحيى ، فلقد شارك فيها الرشيد فكتب على نفسه أماتا يحيى ، ثم شارك فيها غير الرشيد من القضاة والفقهاء ، ثم شارك فيها نفر من كبار بنى هاشم ، أمضى الرشيد وشهد عليه القضاة والفقهاء وكبار بنى هاشم .

ولقد أجاب الرشيد يحيى الى ما طلب ، وماذا يعنى يحيى غير هذا ، وما أغناه عن الحرب ان نال بانسلم والا كان أخرق . وقبل أن يقبل يحيى على الرشيد ، وقبل أن يجنح يحيى الى السلم ، جاءه كتاب الرشيد بهذا الأمان وبهذه الإجابة وبهذه التزكية من القضاة والفقهاء ، وكبار بنى هاشم .

وتحرك يحيى للقاء الرشيد ، وما نشك في أنه تحرك اليه حذرا يحتاط . وحين لقي يحيى الرشيد زال عنه حذره وزالت عنه حيطته . فلقد لقيه الرشيد مرحبا به مبجلا له مكرما اياه . وما كان الرشيد رجلا من الرجال ، ولكنه كان رجلا فوق الرجال . هكذا رآه يحيى ولهذا أطرح يحيى شكه كله، وحذره كله، وحيطته كلها ، وعاد الى اطمئنانه كله ، وحين يعود المرء الى اطمئنانه كله يفقد البصر ويفقد الوعي ويفقد التدبير .

ولهذا أنسى يحيى أن الفقهاء رعية الرشيد . قد أنسوا هم الآخرون صلتهم بأوامر الفقه ونواهيهم وذكروا صلتهم بأوامر للرشيد ونواهيهم ، يؤثرون أن يجعلوا فقههم يستجيب للرشيد ، ولا يجعلون الرشيد يستجيب لفقههم ، وان كبار الهاشميين حياتهم موصولة بغضب الرشيد ورضاه ، ان أرضوه بقوا وان أغضبوه لم يبقوا ، وما أحرصهم على أن يبقوا ، وان الرشيد يملأ عن

طبيعتين : طبيعته ملكا وطبيعته انسانا ، وهو ما دام في الملك تغلب طبيعته الأولى طبيعته الثانية ، فلا يصدر الا عن اثره ، والاثرة تجر الملوك الى نسيان كثير من الحق ، ونسيان كثير من الذمم والعهود .

نقد أنسى يحيى هذا كله حين اطمان ، فاذا هو يلقي الرشيد دون أن يحتاط لشيء ، واذا الرشيد بعد أن يضع يده عليه يقتله ، لاندرى على أية صورة قتله ، ولكننا نعلم علم اليقين أنه حرمه الحياة وحرم هذا الميدان الشيعي منه ، وظن الرشيد أنه أراح نفسه من يحيى ومن الشيعة .

١١

وكانت تلك المحن المتتالية كفيلا بأن تهيب العلووين لتفكير جديد، ولقد كاد الشرق أن يسأم هذا النزاع ويمله ، ولقد أحاطه بتأييده كله حين كان نزاعا له صورة واضحة تكاد تكون عقيدة ، ثم أخذ يتراخي في حياطه بتأييده حين رآه نزاعا لا صورة له واضحة تبلغ أن تكون عقيدة ، فلقد آل الحق للعباسيين وهم هاشميون ، ومن قبل اغتصب الأمويون هذا الحق وهم غير هاشميين ، من أجل ذلك هاج انشرق يناصر الهاشميين مناصرة قوية ، حين كان الأمر في يد الأمويين ، ثم مناصرة فاترة حين كان الأمر في يد العباسيين .

ولقد أحس العلووين الأمر بينهم وبين العباسيين على صورة غير التي أحسوها حين كان الأمر بينهم وبين الأمويين : فلقد كانوا في الثانية يحاربون خصوما ، وهم في الأولى يحاربون أقرباء ، وكانوا في الثانية يملون عن عداء قديم له أصله ، وهم في الأولى يستملون عن خصومة ناشئة لها عذرها ، ولقد كان الناس معهم على نفس الحال، يحسونها حارة في الثانية فاترة في الأولى ، وما على الناس اذا اختلف الأقرباء أن ينتلفوا هم على أنفسهم .

أحس ذلك ادريس من بعد يحيى ، فنظر يفتش عن ميدان جديد يضم قلوبا جديدة . ميدان لم يشهد هذه المعارك ، ولكن كان على علم بها ، ميدان لم يشغل بهذه المعركة يده الى رأسه ، ولكنه شغل بها

رأسه دون يده • واليد حين تكلف ما فوق طاقتها تكل ، وإذا كلت جرت الرأس الى أن يتدبر ليخفف عنها ويريحها ، ولقد كلت الأيدي في الشرق فجرت الرعوس الى هذا التدبير • من أجل ذلك فتر الناس واستراحوا • وكان غير الشام وغير العراق ذلك الميدان الذي شغل رأسا ولم يشغل يدا ، والرأس اذا شغل ولم تشغل معه اليد ، كان أرخى له وأودع ، فبييت ويصحو على ما شغل به متعلقا به يود لو شارك فيه ، حين يقنع به •

وما نطن هذا الأمر الذي جعله الناس في ذاك الميدان الأول عقيدة الا سوف يجعله الناس في هذا الميدان الجديد عقيدة ، وما نطن الداعين لهذا الحق سوف يلقاهم اغناس في هذا الميدان الجديد الا بالترحيب والقبول •

لقد فكر في هذا وذاك ادريس ، فكر في الميدانين معا ، فاذا هو يعدل عن الميدان الأول الى الميدان الثاني ، يحب أن يلقي الناس لم تشغل أيديهم ورعوسهم فيفتحوا له قلوبهم • بعد أن أغلقها دونه رجال الميدان الأول الذي عوقت أيديهم ورعوسهم •

الى هذا الميدان الجديد رنا ادريس ، فاذا هو يقصد المغرب ، واذا هو يحل شمال افريقيا يدعو ، واذا الناس حوله يستجيبون مؤيدين •

وكما رجا ادريس هذا الميدان الجديد خاف الرشيد من هذا الميدان الجديد ، خافه الرشيد بقدر ما رجاه ادريس ، ورآه الرشيد كما رآه ادريس ميدانا بكرا قد يجز عليه ما لا قبل له به •

من أجل ذلك فكر الرشيد ينعم الفكرة ، وما كان الرشيد في حاجة الى أن يجهد فكره ، فكما خلص من يحيى يستطيع أن يخلص من ادريس ، ولكن يحيى كان منه قريبا ، وادريس كان بعيدا • ولعل الفرق بين الحاليين يسر هذا وعسر ذاك ، ولعل هذا هو ما أجهد فكر الرشيد •

ولكن الرشيد لن يعدم قاتلا يأجره في الثانية • كما لم يعدم في الأولى ، وما على الرشيد الا أن يضاعف الاجر ويزيد •

لم يبد هذا للرشيد جليا أول الأمر ، لأن الملوك حين يحزبهم

شيء - وان هان - يضيقون ، وحين يضيقون تلتوى عليهم الأمور ، وحين تلتوى عليهم الأمور يجدون صعوبة ما هو سهل .
وأخص الملوك دون الناس لأنهم يخالون حين يملكون أنهم قد ملكوا الأمور كلها من حولهم ، فإذا استعصى عليهم منها شيء صدموا في هذا الخيال ، فاستحال ظلاما في أعينهم ما كان تورا ، واستحال ضيفا في أنفسهم ما كان فرجا ، لا يعرفون حالا وسطا ، فإذا هم تأثرون الثورة كلها ، وإذا هم لا يملكون عقلا ولا رأيا ولا فطنة ، في ظل هذه الثورة كلها .

فلا عجب أن يضيق الرشيد أول الأمر حين فكر في ادريس وفي الخلاص من ادريس ، ولا عجب أن ارتاح الرشيد آخر الأمر حين خلص من ادريس كما خلص من يحيى ، فلقد وقع الرشيد على من يقتل ادريس ، ولقد أفلح هذا الرجل حين اتصل بادريس ، ثم أفلح حين جعل ادريس يثق به ، وأفلح حين جعل ادريس يستخلصه لنفسه ، ثم أفلح أخيرا - ان صح أن هذا افلاح - حين دس السم لهذا الرجل الذي وثق به .

وهكذا دخل هذا الرجل على ادريس كما دخل الرشيد على يحيى ، ولكن ادريس كان له شيء من العذر على حين لم يكن ليحيى عذر . فمن اليسير على المرء أن يخدع بصديق كما خدع ادريس . ومن اليسير على المرء أن يثق بصديق كما وثق ادريس ، ولكن من العسير أن يفعل الناس كلهم ما فعل هذا الرجل بادريس ، أو أن يخسر الناس خلقهم كما خسر هذا الرجل خلقه .

ولكن هذا الرجل حين خسر خلقه كان له فيمن هم فوقه أسوة ، وإن اختلفت الصورة بينه وبينهم ، ولكنها على الرغم من هذا الاختلاف صورة واحدة ، فليس من فرق بين أن يأمر الكبير بالعدل ليأتيه غيره ، وبين أن يفكر هو فيه ويأتيه ، فهو على الحالين آثم أشرك في آثمه غيره في الأولى ، وانفرد هو بالآثم كله في الثانية ، وهو في الأولى أعظم جرما منه في الثانية .

وعلى أية حال فقد قتل الرشيد ادريس كما قتل يحيى ، قتل يحيى فخلا له الجو حيث هو في الشرق في بغداد وما حول بغداد ، وقتل ادريس يريد أن يخلو له الجو في شمال إفريقيا ، فإذا هو يمهّد للعلويين بهذا القتل في هذا الاقليم الجديد لانشاء خلافة جديدة .

وهذا الميدان الجديد ، كما قلت لك ، ميدان ضم فئات من الناس لم تثقل عليها شئون هذه الدعوة منذ أن نشأت ، ولم يشاركوا فيها برؤوسهم وأيديهم ، وإنما شاركوا فيها برؤوسهم دون أيديهم ، فوفروا تلك الأيدي لهذا العراك الجديد ، الذي استقبلوا به الرشيد لينشئوا حول تلك الدعوة خلافة ، وليلتفوا حول هذه الخلافة يمكنون لها .

فلقد مات ادريس عن غير ولد ، ولكنه مات عن زوجة حامل ما لبثت بعد موته بقليل أن وضعت ولدا أنس به أهل المغرب أنسا يعوضهم حزنهم على أبيه ، لذلك سموه ادريس باسم أبيه ، وبنايعوا له بالخلافة قبل أن يشب ، واليه نسبت دولة الادارسة بالمغرب .



وهكذا رأى ادريس فصدق وأفلح ، حين اختار ذلك الميدان الجديد . ولعلنا نضيف جديدا إذا قلنا : ان بعد هذا الميدان عن مقر الخليفة كان له أثر في نجاح الدعوة ، وكان له أثر في جذب ادريس اليه ، وإيثاره له دون غيره .

وما أبعدت الأرض الرشيد عن أن يكون موصولا بالدعوة ، لا يريد لها الكمال ولا يريد لها الخروج الى الحياة على صورة دولة اسلامية الى جانب دولته الاسلامية ، ولقد قتل ادريس حين أوشك أن يكون خليفة ، وأن يكون صاحب دولة ، ولكننا لا نراه يكرر المحاولة مع ابنه الوليد : ادريس بن ادريس ، بل نراه يعدل عما حاول أولا الى شيء آخر يحاوله يختلف عن الأول . فقد حاول في الأولى أن يواجه فردا بفرد ، لأن الأمر لم يكن قد استقام استقامته الأخيرة ، بل كان لا يزال كما رأى الرشيد داعيا ومستجيبين ، فإذا ذهب الداعي انقض المستجيبون . من أجل ذلك عزم الرشيد على أن يذهب بالداعي على ذلك الأسلوب القادر ، ليفض جمع المستجيبين بذلك الأسلوب الماكر .

هكذا قدر الرشيد ، فاذا الأمر غير ما قدر ، فلقد ذهب الداعي وبقى المستجيبون ، بل لقد تحول المستجيبون الى دعاة .

واذا الرشيد يرى الأمر غير ما رآه أولا ، لا يراه فردا نفرد ، بل يراه جماعة لجماعة ، من أجل ذلك أقطع الرشيد ابراهيم بن الأغلب تونس ، ليجعل منه ومن دولته التي في يديه سدا منيعا في وجه الأدارسة ان هموا أن يغيروا أو هموا أن يخرجوا من أرضهم الى أرضه أو هموا بأن يطوروا سلطانه الى سلطانهم .

فأنت ترى أن الرشيد بدأ ينظر الى الأمر نظرة أخرى ، لم ينظر اليه كما كان ينظر اليه من قبل ، ولا كما كان ينظر اليه سلفه من قبل ، حين كانوا جميعا ينظرون الى هؤلاء المطالبين بحقوقهم نظرتهم الى العصاة ، ونظرتهم الى الخارجين ، ونظرتهم الى المتمردين .

وظاهر أن نجاح الأدارسة في مكانهم هذا النائي عن مقر الخلافة شجع غيرهم أن يحذوا حذوهم من العلويين .

فلقد فر محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق الى الري ، ومنها الى دنياروند — جبل قرب الري — ثم استقر بمكان هناك نسب اليه فكان اسمه محمد آباد . ومضى أبناء لمحمد الى خراسان ، ثم الى قندهار ، ثم الى السند داعين مبشرين .

كما اتخذوا سلمية — من أعمال حماة بالشام — مركزا لنشر هذه الدعوة يبعثون الدعاة منها الى سائر البلاد .

غير أن هذا التفرق كله لم ينف شيئا ، فاذا العلويون متبعون ، واذا هم مضيق عليهم ، واذا هم آخر الأمر ملجئون الى حيث لجأ اخوانهم من قبل الأدارسة ، واذا هم قاصدون شمال افريقيا .

وعند هذه كان سلطان العباسيين قد أخذ ينكمش ، وأخذ سلطان العلويين يتبسط ، أصبح العباسيون يضعفون وأصبح العلويون يقوون ، يأخذ الزمان من أولئك ويعطى هؤلاء .

يهدد انزنج الدولة العباسية من طرف ، وتغير العصابات عليها من طرف . ولقد مهد هذا كله الى قيام دولة في مكان بعيد عن مقر الخلافة من الشمال على الساحل الافريقي ، أعنى تونس : ذلك الاقليم الذي كان في يد ابن الأغلب حين أقطعه اياه الرشيد ، ثم استقل ليستقبل خلافة علوية هي الخلافة الفاطمية .

وهكذا كانت فخ بمآسيها أبلغ أثرا من كربلاء بمآسيها ، فلقد كانت كربلاء والعداوة في أول سنيها ، تحمى لها النفوس وتشرب الأعناق وتطلع الأعين ، وكانت فخ والعداوة قد طال عليها الزمن فألقته النفوس ، وانحنت لها الأعناق ، واسترخت لها الأعين ، فكان الخصم في الأولى عنيفا ، يقظا مترقبا في حماس ، وكان الخصم في الثانية عنيفا يقظا مترقبا ولكن في فتور ، من أجل ذلك وجدت الدعوة فرصتها مع الثانية ، ولم تجدها مع الأولى ، وما كانت كربلاء دون فخ ، وما كانت فخ تفوق كربلاء ، فلقد قتل في كربلاء الحسين بن علي أكثر الناس قريبي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقتل في الثانية الحسين رابع حفيد للحسن بن علي ، وبينه وبين الرسول آمله .

وهكذا كان اختيار ذلك المكان من شمال افريقية ، حيث مدينة فاس ، أبلغ أثرا من سلمية في الشام ، ففي ذلك المهد الثاني - أعني فاس - كتب للأدارسة أن يتجمعوا ، وكتب لهم أن يقيموا دولة ، وكتب لهذه الدولة أن تبقى نحوا من مائتي سنة ، أي منذ بوليع لادريس بن ادريس (سنة ١٧٧ هـ) إلى أن آل أمر البلاد إلى الفاطميين (سنة ٣٧٥ هـ) ، وكتب لهذه الدولة أن تجر إليها الدعوة من الشرق ليحتموا بها ، ولينشروا الدعوة في ظلها ، وما استطاع المهد الأول سلمية بانضمام أن يؤمن الدعوة ولا أن يحفظ لهم دعوتهم ، فخرجوا عنه إلى المغرب .

وهكذا كان هذا النصر الذي كسبه الأدارسة ، حين أقاموا لهم دولة بالمغرب ، بدءا بتمكين العلويين ، وبدء دخول هؤلاء المكافحين إلى الحكم ، وبدء الاستقرار فئة مكافحة مجاهدة ركبت الصعب الأشق ، فلم تهن ولم تقتتر ، وحملت على مالا يقوى على حمله بشر ، فصبرت ولم تقتتر وضيقت عليها السبل فلم تيأس ولم تقصر ، دفعت ثمن هذا الاستقرار دما سال على البقاع ، كلما جف دم أسالت غيره ، لم تبخل ولم تقتتر .

وكما جعل أبو مسلم الخراساني دعوة العباسيين ينشرها في ربوع الشرق ، حمل أبو عبد الله الشيعي دعوة العلويين - الفاطميين - ينشرها في المغرب ، وكما مهد أبو مسلم لأبي العباس السفاح يحكم باسم العباسيين ، مهد أبو عبد الله الشيعي للمهدي عبيد الله يحكم باسم الفاطميين .

وكان أبو عبد الله الشيعي الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا ، رجلا من أهل صنعاء ، وكان ول العهد به على رأس الاثنى عشرية ، التي كانت تغلو في اجلال علي بن أبي طالب ، يدين بهذا الرأي ، ويقوم بتعليمه للناس ، حتى عرف باسم المعلم ، وكان صوفيا يعرف الناس له زهده ، ويعرفون له تقشفه ، فجل في نفوسهم ، ثم جنح الى الاسماعيلية الداعين الى امامة اسماعيل بن جعفر الصادق والمهدين للدولة الفاطمية .

واتصل أبو عبد الله بالمهدي محمد أبي عبيد الله ، فأنس به المهدي حين رآه ذا كفاية وذا ذكاء ، والدعاة حين يقفون على من في مثل أبي عبد الله كفاية وذكاء لا يدعونه يقلت من أيديهم ، اذ ما أوجع الداعين الى كفاية تمل الصبر ، وذكاء يمل النفاذ ، هذا وأبو عبد الله لم يكلف شيئا غير ما يعتقد ، ولم يوجه الى غير الوجه الذي يجب .

وكانت الاسماعيلية قد جعلت من مدينة سلمية مركزا لها تنشر منه الدعوة ، وعن سلمية كان يخرج الدعاة الى جميع البلاد يبشرون ويدعون ، يحتال هؤلاء الدعاة ألوانا من الاحتيال ، تصرف عنهم العيون ، وتجعلهم بمنأى عن كيد العباسيين .

فكان لهم في كل قطر اسلامي نائب يلى أمر الدعوة ويهيئ لها ، وكان امامهم في اليمن ابن حوشب ، وكان شيخا من شيوخ الاسماعيلية ، له بأساليب الدعوة بصر ، وعلى يديه تخرج كثيرون .

وحين أنس المهدي بأبي عبد الله رأى أن يرسله الى اليمن أولا ليعيش في ظل ابن حوشب فترة يلقي عنه ويفيد . وألم أبو عبد الله بابن حوشب يلقي عنه ويفيد ، حتى اذا ما فكر الاسماعيليون في هذا الميدان الجديد ، ميدان المغرب ، بعد أن ضاقوا بسلمية ، وضائق بهم سلمية ، وجدوا في أبي عبد الله رجلا الذي يعتمد عليه في هذا

الميدان ، ووجدوه لهذه المهمة ذا كفاية وذا ذكاء . ووجد أبو عبد الله البربر - أهل تونس والمغرب - ذوى حمية ، على استعداد لأن يدفعوا بأنفسهم فى أتون الحرب ، لا يبالون وطيسها ، لم يلتوا عليه بما فى جبلتهم من خشونة واستعصاء ، فلقد كان أبو عبد الله أعلم الناس بما يسأس به الناس فالأن من عريكتهم ، ورقق من طباعهم ، وإذا هم فى يده يحركهم كيف شاء فخلق فى نفوسهم عقيدة ، وخلق منهم بعد هذه العقيدة جيشاً ، وخلق من هذا الجيش أنصارا يعيشون ويموتون على الطاعة ، وإذا أبو عبد الله بحزمه وعزمه قد مهد البلاد لاستقبال الخليفة الفاطمى المهدي .

ويحكون أن أبا عبد الله حين انفصل عن اليمن ، تاركا ابن حوشب ، يحفظ فى رأسه عنه ما زوده به ، قصد الى مكة ، وفى مكة سأل عن حجاج كتامة سكان افريقية ، ولقى أبو عبد الله من كتامة نفرا فوجد عندهم تعلقاً بال أبييت ، فدخل الى نفوسهم من هذا الباب الذى فتحوه له ، فاذا هو يتكلم ويفيد ، واذا هو على استيعاب كبير لنوادر كثيرة ومآثر جليلة ، واذا الكتاميون بعد ما استمعوا اليه قد تعلقوا به يستزيدونه ، وأبو عبد الله لا يرد لهم طلباً ، واذا هو والكتاميون بعد حديث طويل تجمعهم صداقة ، وتجمعهم أخوة ، واذا هم يدعونه ويلحون فى أن يتيح لهم الألام به مدة اقامتهم بالحج ، ليسمعوا عنه ويموا . وما رد أبو عبد الله لكتامة طلبهم هذا ، بل لقد سر به . وكان داهية فأخفى هذا السرور فى نفسه ، وزاره الكتاميون مرة ومرة لم ينقطعوا يوماً عن زيارته .

وحين أخذ أبو عبد الله يعد العدة للرحيل صحبوه الى مصر ، يحدثهم أبو عبد الله ويسمعون هم عنه ، كل ذلك وأبو عبد الله لا يفصح عن غرضه ، ولقد استمعوا اليه محدثاً فأحبوه ، ورأوه تقياً فأجلوه ، وعرفوه ورعاً فهابوه ، وأحسوا فيه الزهد فأكبروه .

وهكذا استحوذ أبو عبد الله على ما فى قلوب كتامة كله ، لم يترك شيئاً فى تلك القلوب من المعانى الطيبة الا حازه .

غير أن أبا عبد الله لم يفته - شأن الداعية السياسي الماهر - أن يسألهم عن بلادهم وأحوالهم ، دون أن يحسوا منه شيئا يدعو إلى الشك أو يدعو إلى الريبة ، فاستخلص منهم أبو عبد الله ما يريد أن يعرف . وعندما انتهوا إلى مصر هم بأن يودعهم ، وهو يظهر أنه يريد الإقامة في مصر طلبا لمجالس العلم ، وما من شك في أنه كان يريد غير مصر ، كان يريد المغرب ، ولكنه أظهر غير ما يخفى يستتر بذلك غرضه . وكان وانقا كل الثقة أن المغاربة من كتامة ، بعد الذي كان منه اليهم ، وبعد الذي كان منهم إليه ، لن يتركوه يقيم في مصر ، فأنحوا عليه في أن يصحبهم إلى بلادهم : الجزائر .

وتمنع عليهم أبو عبد الله بادي الأمر ، تمنع الراغب المدل ، يظهر هذه الرغبة في ظل هذا التمنع . ولكنهم على هذا لم يتبينوا منه إلا أنه متمنع غير راغب ، فزادوه رجاء ، وزادهم هو ادلالا ، حتى إذا ما أحس أنهم كادوا يضيقون بادلاله ، وخاف أن يتركوه ويمضوا أظهر الرضى على استحياء ، ومضى معهم على الطريق إلى الجزائر .

وتسامعت به القبائل ، فقصدت إليه البربر من كل مكان ، حتى إذا ما أنسوا به وأنس بهم أخذ يبشرهم برسائله ، فإذا هم قد زاد به التفافهم ، وإذا هم قد أولوه ثقته ، وإذا الجزائر تصبح مركزا للدعوة الاسماعيلية .

ومن قبل أبي عبد الله جاء إلى الجزائر اسماعيليان ، وحاولا أن يمكننا للمذهب الاسماعيلي في الجزائر ، فأفلحا في شيء ، وأخفقا في شيء ، وكان ما أخفقا فيه أكثر مما حاولاه ، ولكنهما على كل حال كاتا قد تركا أثرا ما أن ذكر به أبو عبد الله الناس حتى ذكروه . وما منع ذلك أن يكون لأبي عبد الله في الجزائر خصوم . فلقد عاداه خلق كثير ، منهم الزعماء ومنهم الفقهاء . غير أن هؤلاء وهؤلاء لم ينالوا منه شيئا ، فلقد كان الرجل قوى الحجة مفلجا ، لا يثبت له خصم إذا حاجه . وكان إذا خضع له الفقهاء خضع له بعد الفقهاء الزعماء . فلقد كان أبو عبد الله عالما على حظ كبير من العلم ، صاحب حجة وصاحب برهان ودليل ، استطاع بهذا كله أن يقهر أنداده من الفقهاء ، كما قلنا ، وما كان يملك أن يقهر هؤلاء الزعماء بعلمه ، ولكن هذا العلم الذي قهر به الفقهاء قهر به أبو عبد الله الزعماء

أيضا ، فالى عهد أبى عبد الله لم تكن الزعامة الا للعلم ، فاذا قال العالم نعم ردد الناس من بعده هذه الكلمة دون أن يتساءلوا ، واذا أجاب العالم بالرفض رفضوا كلهم معه دون أن يسألوا ، وهكذا أخضع أبو عبد الله المغرب بعلمه ، وضمه اليه على رأيه ، لم يخض معركة غير تلك المعركة الكلامية التي احتدمت أول الأمر بينه وبين الفقهاء ، ثم انتهت آخر الأمر سلما بينه وبين الفقهاء والزعماء ، واذا حول أبى عبد الله البربر وعامة كتامة .

ومضت الظروف تساعد أبا عبد الله ، فلقد مات عدو له قوى ، كان على تونس حاكما ، وكان يعنيه ألا تقوم للفاطميين قائمة ، وكان يعنيه أن يختفى من بين يديه هذا الداعية الخطير أبو عبد الله .

وكان الملك على تونس حين ذاك ابراهيم الثانى الأغلبى ، من نسل ابراهيم الأول الأغلبى ، الذى أقطعه الرشيد تونس ليقضى على الأدارسة ، وكما لم يفلح ابراهيم الأول فى انقضاء على الأدارسة ، لم يفلح ابراهيم الثانى فى القضاء على الاسماعيلية ، مع اختلاف سير . فلقد انتهى الأول عن الأدارسة عن عجز ، وانتهى الثانى عن الاسماعيلية عن موت ، وهكذا ذهب الموت بابراهيم الثانى دون أن ينال من أبى عبد الله شيئا ، كما ذهب بابنه العباس دون أن ينال هو الآخر من أبى عبد الله شيئا ، واذا أبو عبد الله بين يدى خليفة من بنى الأغلب ، هو زيادة الله ، منغمس فى الترف غارق فى اللهو الى أذنيه ، لا يعنى بأبى عبد الله ، ولا يعنى بأمر أبى عبد الله ، ووجد ابو عبد الله الفرصة سائحة ، فأذل الأغالية وبسط نفوذه على البلاد ، وأخذ يجهر فى الناس بظهور المهدي وأن أوانه قد آن .

١٤

وأنفذ أبو عبد الله الرسل الى المهدي فى سلمية ، يدعونه الى المجىء الى افريقية ، غير أن أبا عبد الله كان قبل أن يرسل الى المهدي قد مهد له النفوس فملأها بحبه ، ومهد له فى العقول فشغلها به ، وكذلك الدعاة يعرفون كيف يستميلون الناس وكيف يجذبونهم الى رأيهم فى هودة ولين .

عرف أبو عبد الله أن أثقل شيء على الناس أن ينزلوا عن شيء مما يكسبون ، فحاول أن يرد عليهم هذا الشيء القليل الذي يدفعون ، يرد هذا القليل عليهم ، وهو حق مفروض للدولة عليهم ، لينال أضعافه منهم يدفعونه هم مختارين ، ويكون أبو عبد الله قد كسب انقلب في الثانية مع مزيد من المال الذي يريد ، على حين هو في الأولى ان قبل هذا القليل المفروض خسر القلوب ، وقد يخسر بعدها فوق هذا القليل من المال الذي قبله .

يعكون أن أبا عبد الله لما أصبحت مدينة طينة في يديه أقامه والى هذه المدينة مع نفر من عمال الجباية يقدمون لأبى عبد الله الأموال التي جمعوها من الأهلين ، وأبو عبد الله لبق يعرف من أين جاءت هذه الأموال ، ما كان ذلك ليخفى عليه بعد ما أقام في الجزائر من أعوام ، ولكنه التفت الى الوالى يسأله : من أين جمعت هذا ؟

فيقول له الوالى : من العشور . ويقول أبو عبد الله في خبث : انما العشور حبوب وهذا عين . وكان أبا عبد الله كان يريد من ذلك الوالى أن يحمل اليه أكداسا مكدسة من الحبوب على ظهور قوافل من الابل لا تعد ، وأن يعد لهذا كله أمراء واسعة بين يدي أبى عبد الله لتصب فيها ، ولكن أبا عبد الله كان مأكرا وكان خبيثا ، فأراد أن يلفت اليه قلوب الناس ، لاسيما العامة ، يشعروهم أنه معهم ، ويشعروهم أنهم محبوبون ، ويشعروهم أن رسالته أو رسالة الخليفة الذي يدعو باسمه تبغى انصافهم ، من أجل ذلك التفت الى رجال من ثقاته يقول لهم : اذهبوا بهذا المال فليرد على كل رجل ما أخذ منه .

مثل هذا وغيره واجه به أبو عبد الله أهل المغرب ، وأحسن أهل المغرب أنه قد أعان فقيرهم ، وخفف عن عاجزهم ، ورعى كلهم ، فأحبوه كلهم ، وهل الناس ان أحصوا الا بين ضعيف وعاجز وكل وما بعد ذلك فهم قلة مستغلة ونزر طامعون فيما في أيدي هؤلاء الكثيرين . وما كان أبو عبد الله يعنيه الا أن يرضى كثرة الناس ، وهم جديرون بهذا الارضاء ، وما كان يعنيه أن تغضب هذه القلة من الناس ، اذ كان يرى الحق معه عليهم .

على هذا النحو مضى أبو عبد الله فى مهمته ، وبهذا النحو جمع أبو عبد الله الناس حوله ، وبهذا وذاك أراد أبو عبد الله أن يتلقى المهدي لينادى به خليفة فى ذلك المقر الجديد ، بعد أن عجز أبو عبد الله وبعد أن عجز الدعاة معه عن أن يقيموا المهدي خليفة فى مقره الأول ، حين اختاروا الشرق ميدانا لدعوتهم •

وما كاد رسل أبى عبد الله يبلغون ما أرسلوا به الى المهدي فى سلمية حتى راحت نفسه ، وحتى بدا البشر فى وجهه ، وجرى الشكر على لسانه ، عندما أصبح علنا ما كان سرا ، وذاع الخبر حتى بلغ أسماع المقتفى ، الخليفة العباسى •

وبقدر ما راحت نفس المهدي تقبضت نفس المقتفى ، وبقدر ما استبشر المهدي عبس المقتفى ، وكاد النكر يجرى على لسانه •
وحين يبلغ هذا كله من نفس الخليفة يلحق به غيره ، فاذا هو أمر ، واذا هذا الأمر ظاهره القبض ، وما ندرى ما بعض القبض •
ولكن المهدي كان أسرع من أمر المقتفى ، فما كناد أمر المقتفى يبلغ المهدي فى سلمية حتى كان المهدي قد بلغ سجلماسة •

ولقد ظن المهدي أنه نجا حين غادر الشرق ووقع فى الغرب ، غير أنه حين وقع فى الغرب ونزل بسجلماسة وقع فى قبضة أميرها اليسع ابن مدرار ، واذا هو قد وقع فيما فر منه ، واذا هو مقبوض عليه محبوس •

وما نظن المهدي جاز الطريق من سلمية الى سجلماسة أمنا كله ، وما نظنه لم يلق كيدا ، بل لقد تعرض لمشاق وتعرض لمحن ، واختفى مرة ليظهر أخرى ، الى أن وصل سجلماسة ، وكان ما كان من القبض عليه على يد هذا الأمير الذى كان لا يزال على صلة بالخلافة العباسية ، يتأفها ويرغب فيما عندها •

وحين كان المهدي فى سجنه كان أبو عبد الله فى فتوحه ، فلقد أراد أن يسلم البلاد الى المهدي خالصة ، وكانت لاتزال بين أبى عبد الله وزيادة الله أشياء ، فمضى أبو عبد الله فى حربه مع زيادة الله يرغب

فى أن يخلص منها ومنه • ولقد كتب لأبى عبد الله أن يظفر بزيادة الله ، فاستولى على ما عنده كله من مال وسلاح • وما أن تم له ذلك حتى منع من أن يذكر اسم الخليفة العباسى نى خطبة ، فمحا بهذا كل ما للعباسيين من سلطان على هذه البلاد • ثم أمر فسكت النقود ، وعلى وجهيها كلمتان اختارهما تحملان التفاؤل كما نقش على السلاح شيئا مثل هذا • وحين كتب لأبى عبد الله النصر كله وآل الأمر كله الى يديه قصد سجنه ، ثم قصد الى السجن فأطلق أبا عبيد الله المهدي • وحين خرج المهدي من سجنه خرجت معه دولة ، هى الدولة الفاطمية لنظر هذا الساحل الافريقى وليكون لها الأمر عليه •

١٥

وجلس المهدي على العرش أميرا للمؤمنين ، يفد عليه الناس داعين مؤيدين • وأخذ يقضى فى شئون الدولة ويدبر أمورها ، يسانده رجلا ، أولهما ذلك الرجل الذى حمل العبء كاملا وسعى فيه مخلصا أبو عبد الله الشيعى ، وثانيهما أخ للمهدي دخل الى الأمر بقرايته أكثر مما دخل اليه بجهده • ولكنهما على كل حال كانا الرجلين الذين يليان مع المهدي الأمور ، يقضيان فى شئ • ويتركان للمهدي شيئا ، وعرفهما الناس مع المهدي ، والملوك يحبون أن يعرفهم الناس وحدهم ، ولا يحبون أن يشرك الناس معهم غيرهم • فإذا ما أحسوا هذه الشراكة أحسوا النقيصة تدخل عليهم ، وإذا أحسوا النقيصة فزعوا ، وإذا فزعوا استبدوا ، وإذا استبدوا استأثروا ، يجعلون الأمر كله لهم دون غيرهم • وهكذا حين أحس المهدي النقيصة تدخل عليه من باب المشاركة فى الأمر فزع فاستبد واستأثر بالأمر دون أخيه أبى العباس ، ودون داعيته الذى مهد له أبى عبد الله ، فإذا هو يسلبهما الكثير مما فى أيديهما •

وكما غضب المهدي حين أحس أنه مسلوب غضب أبو العباس وأبو عبد الله حين أحسا أنهما مسلوبان ، وإذا هما ينطويان على شيء وينطوي المهدي هو الآخر على شيء ، وإذا هما حزب والمهدي حزب ، وإذا الحزبان يتنكر أحدهما للآخر ، ويعيب أحدهما الآخر ، وإذا دب مثل هذا بين الملوك وبين من يحيط بالملوك انتقل الأمر من ميدان الكلام الى ميدان العمل ، أما أن يملك الملوك عملا يحسمون به الموقف ، وأما أن يملك المحيطون بالملوك عملا يحسمون به الموقف . ولقد كان المهدي أسرع الى هذا العمل من أخيه أبي العباس ، ومن داعيته أبي عبد الله فهو يدفع عن شيء في يده يخاف أن يسلبه ، وهما يدفعان هما الآخران عن شيء في يديهما يخافان أن يسلباه ، ولكن ما في يد المهدي كان أكبر مما كان في يد أبي العباس وأبي عبد الله ، من أجل ذلك كان اسراع المهدي وكان ابطاء أبي العباس وأبي عبد الله .

وثمة شيء آخر ينضاف الى ذلك السبب الذي أسرع بالمهدي ، هو أن المهدي كان ملكا يملك الأمر كله ، فلم يتلبث ليحتاط ويتدبر ، وكان أبو العباس وأبو عبد الله لا يملكان من الأمر الا قليلا فكان عليهما أن يتلبثا قليلا ليحتاطا لأمرهما ويتدبرا . وهما لهذا أخذا يثيران النفوس سرا على المهدي ، وتبلغ هذه المهدي فيضيف الى أسراعه أسراعا ، فإذا هو يقع على أبي عبد الله ، ويقع على أخيه ، ويأمر بقتلهما معا .

وما سكنت الناس لقتل أبي العباس فثاروا ، وكانوا أكثر ثورة لقتل أبي عبد الله ، فلقد كانت في أنفسهم جميعا لأبي عبد الله مكانة . ولكن أبا عبد الله كان قد لقنهم الطاعة لأمره ، وأصبحت الطاعة في نفوسهم عقيدة ، حتى ليقال ان الذي تصدى لأبي عبد الله ليقتله ، حين وقف من أبي عبد الله هذا الموقف الأخير وسيفه في يده ، التفت اليه أبو عبد الله يقول : لا تفعل . فقال له الرجل : ان الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك . ثم أجهز عليه .

هكذا كانت طاعة الناس للمهدي ، لم يعرفوا الطاعة لأبي عبد الله بعد أن عرفوا الطاعة للمهدي ، لهذا ما كاد الناس يثورون لقتل أبي عبد الله حتى هددوا ، حين خرج اليهم المهدي يأمرهم بالهدوء .

وهكذا مضى أبو عبد الله مجزياً هذا الجزء الذي لا يتفق وما
آداه ، ويذكرنا مقتله بداعية آخر قبله مهد مثل ما مهد ، وفعل مثل
ما فعل ، ولكنه هو الآخر مضى مقتولا ، لم تشفع له أياديته الأولى
كما لم تشفع لأبي عبد الله أياديته الثانية .

فلقد مهد أبو مسلم الخراساني للدولة العباسية ، وحمل في
ذلك عبثاً كبيراً ، وجهداً متصلاً . وحين أحس أبو العباس السفاح
أن لأبني مسلم شأنًا ، وأن شأنه هذا كاد يخالط شأنه ، خافه وفزع
منه ، وسعى إلى قتله فقتله ، ومضى أبو مسلم مجزياً بهذا التكرار
لا الشكر .

وكما مضى أبو مسلم مضى أبو عبد الله ، كلاهما دعا للدولة
التي نشأ في ظلها وآمن بها ، وكلاهما أخاف مولاه ، وكلاهما شك
فيه مولاه ، فإذا الجزء هنا يشبه الجزء هناك ، وإذا المهدي مثل
أبي العباس السفاح ، هذا يقتل داعيه ، وذاك يقتل داعيه ، يقسى
الملك قلب هذا كما قسى الملك قلب ذاك ، وتنتزع الدنيا الرحمة من
قلب المهدي ، كما نزعتها من قلب أبي العباس ، لا يلتفت أحدهما
لماضي طويل ممتد ، كله جهد وكله تضحية .

١٦

ولكننا على هذا لا نريد أن نهون من ثورة الناس بالمهدي لقتله
أيًا عهد الله ، فما نرى أن المهدي أخضع الناس بهذا اليسر اليسير ،
ولكنه لقي شداً كثيرة ، ولقى أهوالاً متصلة يخرجه من شدة إلى
شدة ، ومن هول إلى هول .

يحكون أن كتابة انتقضت على المهدي حين قتل أبا عبد الله
الشيعي ، ونصبوا طفلاً لقبوه المهدي ، يزعمون أنه هو . ونشأ
لهم في ظل هذا زعم آخر ، فزعموا أن أبا عبد الله الشيعي لم يمت .
فخف المهدي لحربهم ، وسرعان ما قضى على الفتنة بينهم بعد أن
قتل ذلك الطفل الذي لقبوه المهدي .

وكما انتقضت كتامة انتقض أهل طرابلس ، يثرون على
المهدى الفتنة ، وكما أخضع المهدى كتامة أخضع أهل طرابلس .

وبين هذا وبين ذاك ثارت فتن وحدثت قلاقل ، كلفت المهدى
وجيشه شيئا كثيرا ، وما كاد المهدى يخلص من هذه الفتن كلها ،
وتستقيم له الحياة ، حتى ودع تلك الحياة ليلقى ربه بصفحة كلها ،
خيرها وشرها ، تاركا إمارة المؤمنين من بعده لابنه أبى القاسم .

وما من شك فى أن الحياة لم تصف كلها لأبى القاسم ، فلقد
كانت الدولة لاتزال تحمل فى طياتها بقايا من فتن قديمة ، خلفها
مقتل أبى عبد الله ، ثم فتن جديدة أثارها أبو القاسم نفسه ، فلقد
كانت له حروب شتى هنا وهناك ، ليفسح للكه أن يمتد ،
يعتينا منها نظرتة الى مصر وإرساله حملة صغيرة إليها ، وما أشرفت
هذه الحملة على الاسكندرية وتملكتها ، حتى ردهم عنها الاخشيده ،
فقللوا راجعين الى المغرب .

وبموت أبو القاسم ووليه ابنه المنصور اسماعيل . وما صفت
للمنصور حياته كلها ، كما لم تصف لأبويه من قبله ، الى أن توفي
سنة احدى وأربعين وثلاثمائة ، بعد أن قضى فى الخلافة ما يقرب
من سبع سنين ، فخلفه ابنه المعز لدين الله .

ولقد استقامت الأمور للمعز فى افريقية والمغرب ، يناصره
على أمره كله قائد له قوى عرف بالبطش وسعة الحيلة ، وكان الى
تلك القدرة العسكرية كاتباً من الكتاب ، وكان على وزارة المعز .

فلقد جرب المعز قائده جوهر الصقلى فى غير موقعة ، فأبلى ،
الى أن انتهى الى المعز أن الاحوال فى مصر قد اضطربت بعد وفاة
كافور الاخشيدي ، وأن الغلاء زاد وعم ، وأن الفتن انتشرت ،
وأن بغداد فى شغل عن مصر بفتنتها هى ، عند هذه وجد المعز
الفرصة سانحة لأن يثب الى مصر . وحين يفكر المعز فى الوثوب
بيده ما يفكر فى قائده جوهر الصقلى . فسيره الى مصر وخرج يودعه ،
وسار جوهر يقصد مصر . وهناك على حدودها يلقى الاخشيده فى
جند مبعثرة غير متماسكة ، ما يكادون يلقونه حتى يتفرقوا أيدي

سبها . ودخل جوهر مسجد ابن طولون فصلى فيه ، وكان مما
استحدث أنه زاد على الأذان فيما يقولون هذه العبارة : « حى
على خير العمل » فكان أول آذان من لونه أذن به فى مصر .

وحين استقر الأمر لجوهر بعث الى المعز يشره ، وبعث مع
البشير بالهدايا ، وبعث مع الهدايا الأعيان من دولة الاخشيديين ،
وبعث مع الأعيان نفرا من القضاة ونفرا من العلماء . واستقبل
المعز هذا كله . سره خبر الفتح سرورا بالهاه عن أن ينظر الى الهدايا
ولكنه لم يلفته عن أن ينظر الى الأعيان ، فأمر بحبسهم ، وكاد أن
يفعل مثلها بالقضاة والعلماء ، غير أنه ارتد الى نفسه ، فرأى أنه
بعد قليل داخل مصر . وأنه لا بد له من أن يمهد لهذا الدخول فى
قلوب المصريين ، وليس أقوى على هذا التمهيد له فى القلوب ، أن
دخل مصر ، من القضاة والعلماء ، فردهم الى مصر مبعجلين مكرمين .

والتفت جوهر يعد لمقدم المعز ، لا يرى القسطنطينية القديمة
ولا القطائع من بعدها تغنيان حاضرتين فى استقبال الخليفة
شيئا ، وكان هم جوهر أن يضيف على ذلك التقدم ألوانا من المهابة
والاجلال ، ليغرس فى قلوب المصريين الطاعة ، ويغرس فى قلوبهم
الاعظام للخليفة ، من أجل ذلك أخذ يعد له حاضرة جديدة تليق
بمقدمه ، فكانت القاهرة التى بدأ جوهر فى بنائها استعدادا لمقدم
المعز .

ويقدم المعز الى مصر ، فيدخلها فى الخامس من رمضان سنة
اثنيتين وستين وثلاثمائة . وهو يحمل معه جثث آباءه الثلاثة :
المنصور ، وأبى القاسم ، والمهدى ، وان دل هذا على شيء فانما يدل
على ما كان ينوية المعز ، وأنه يريد أن يستبدل وطننا بوطن ،
ويجعل القاهرة مقرا للدعوة الشيعية .

وقديما كانت القاهرة محط أنظار الجميع ، كانوا كلهم
يتطلعون اليها ، وكانوا كلهم فيها راغبين ، واذا كان المغرب الميدان
الصالح لبدء الدعوة لبعده عن مقر الخلافة ، فلقد كانت مصر فى
نظر الغاطمين المكان الصالح للتمكين للدعوة ونشرها هنا وهناك .

لتوسطها بين الأقاليم الإسلامية شرقاً وغرباً ، هذا الى ما تمتاز به مصر من ثروة تفيض على أهلها والقادمين اليها ، ولما كانت تمتاز به مصر من جنوح الى الهدوء ، يعلى على أهلها فكر يستمل من تلك الأحداث التي مرت به عجلة متغيرة ، تحمل في طيات تلك العجلة وذاك التغير ألواناً مختلفة ، لا يكاد يكتب لبعضها الاستقرار يوماً أو بعض يوم حتى يزحزحه من مكانه لون آخر ، لا ليدوم ويبقى ، ولكن ليتغير هو الآخر ، يصحب ذلك كله عنف وظلمة قسوة ، وفيما بين العنف والقسوة دماء تسيل ونفوس تزهق وأبرياء يعذبون . تقوم عروش وتتل عروش ، لا نعرف كيف قامت ، ولا نعرف كيف ثلت ، ولكنها كانت حياة تمر تحت تدبير هذا الفكر المصرى ووعيه . ولقد أفادت الأحداث هذا الشعب أن يلقاها آخر الأمر هادئاً ساكناً . لا يلقى اليها بالا ، لأنها كانت أعجل من أن تجعله يتحرك لها أو يلقى اليها بالا ، ولأنها كانت تمضى لا تسبقها أسباب تلفت اليها وتشغله بها ، فزاد ذلك فكره هدوءاً الى هدوء .

ولقد ظن الفاتحون هذا الهدوء فى الفكر المصرى خموداً ، وكذا ظنه الفاطميون الفاتحون فطمعوا فى مصر جاعلين هذا الهدوء من بين الأسباب الأولى التي حملتهم على دخول مصر .

ولقد أساءوا بمصر انظن ان كان هذا تقديرهم ، وما هبوا المصريون بدخول الفاطميين وغير الفاطميين قبلهم الا لأنهم رأوا الأحداث أكثر من أن يشغلوا بها وأسرع من أن يلحقوها ، وأبعد من أن تخضع لفكر أو تعلية أسباب ، فتركوها على هذا النحو تمضى ووقفوا هم يتطلعون اليها وهي تمر عجلة تحت أبصارهم ، وما نظنهم استطاعوا حتى مع هذه الحال أن يلاحقوا الأحداث بأبصارهم حتى لا يفلت منها شيء .

وما نحسب المصريين هدؤوا شيئاً حين دخل الفاطميون الا لهذا الذى قدمناه ، ثم لشيء آخر نريد أن نضمه الى ما قدمناه ، وهو أن المصريين كانت قلوبهم أميل الى العلويين منها الى ائى بيت آخر ، من أجل ذلك نراهم خرجوا عن هدوئهم الذى استقبلوا

به الثقاتين من قبل الى شئ غير الهدوء . لم يكن غضبا ولا ثورة ، وإنما كان شيئا أقرب الى البشر والأنس ، لأنهم - كما قلت لك - كانوا يحبون هذا البيت العلوى ويميلون اليه . ولقد استقبل الفاطميين حين دخلوا مصر كثيرون من المصريين الذين كانوا يعتقدون هذا المذهب الشيعى ويؤيدونه ، هذا الى أن البلاد - أعني مصر - كانت كما قدمت لك - قد انتهت بعد موت كافور الى حال من انقوضى والجوع والقحط شديدة ، وتبع هذه القوضى وهذا الجوع وذاك القحط وباء حصد الأرواح حصدا ، حتى أصبح اناس عاجزين عن تكفين موتاهم وعن ان يدفنوهم ، وحتى اضطروا الى القاء جثث موتاهم فى النيل ، لذلك السبب الى سببين قدمتهما لك ، وقفت مصر هذا الموقف الهادى السكان .
تستقبل الفاطميين .

وما من شك فى أن هذا الفتح - أعني فتح مصر - كان له أثر اى اثر فى بغداد ودمشق ، وبدا الفاطميون يتحولون بأبصارهم بعد فتح مصر الى ما وراء مصر .

وهكذا زال سلطان الاخشيديين والعباسيين عن مصر ، وأضحت هذه البلاد فاطمية تنافس بغداد حاضرة الدولة العباسية ، التى أخذت الشيعوخة ثوبا فيها وتوهن عظامها ، وأصبحت مصر دار خلافة بعد ان كانت دار إمارة ، تابعة للدولة الفاطمية فى المغرب .

١٧

وتحول المصريون من ولاء الى ولاء ، تحولوا من ولاء كانوا يدينون به دينونة المحكوم للحاكم ، الى ولاء تدين به قلوبهم وتمتلى به عواطفهم ، تحولوا من ولاء العباسيين الى ولاء الفاطميين . ولقد نجح الفاطميون حين جعلوا القاهرة مقرهم ، وحين أخذوا ينشرون الدعوة هنا وهناك ، لا يألون جهدا ولا يدخرون وسعا .

وكما كان للقاطمين هذا الطموح المذهبي كان لهم الى جانبه طموح سياسى ، فلقد جربوا الحياة وعرفوا أنه لا انتعاش لراى الا اذا حمته الدولة وحماه السلطان ، وكم عانوا من قبل حين فقدوا هذا السلطان وحين أرادوا نشر رأيهم ومعتقدهم ولا سلطان لهم ، فلقد طال بهم الزمن وتعثرت بهم الخطا حين فقدوا هذا السلطان ، وكان هذا السلطان فى أيدي خصمهم كلما أقاموا صرحا هدمه عليهم خصمهم ، وكلما مكثوا لمعتقدهم نقض عليهم ذلك خصمهم ، يفرق جماعتهم ويقضى على أحادهم .

وما قدر لهؤلاء الملوين أن يخرجوا من باطن الأرض الى ظاهرها ، وأن يجاهروا الناس بما يؤمنون به بعد أن كانوا يساروهم ، الا حين استقامت لهم هذه الدولة فى المغرب وحاطها السلطان ، ومكن لها هذا السلطان برهته ، ودفع عنها هذا السلطان بقوته .

والدعوات أحوج ما تكون الى أن يساند حجتها ويساند أدلتها سلطان يدفع عنها الكيد أولا ، ويجمع اليها الناس ثانيا . وهى اذا با توفر لها هذان الشرطان مضت تسوق حجتها ومضت تكشف عن أدلتها ، لا تنفر منها العقول لتتدبرها ، ولا تتحول عنها القلوب لتتفهمها ، اذ أصحاب العقول أنفر من أن يفتحوا قلوبهم لجسديد لأول وهلة ، وأصحاب القلوب أبعد من أن يقبلوا على جديد لأول وهلة ، ولا بد للعقول وللقلوب من هذا السلطان انهن أول الأمر يجمعها حول الرأى حينما لتسمع ، وأمدا قصيرا لتفقه ، حتى اذا ما وعت وفقحت كان لها الخيار بعد هذا أمام الحجة وأمام الرأى ، ولم يكن للسلطان عليها سبيل ، اذ السلطان الذى يفلح أولا فى جمع أصحاب العقول وأعداد أصحاب القلوب لا يفلح بعد هذا وذلك فى حمل العقول ولا حمل القلوب على أن تؤمن بالرأى وتعتقه الا بعد أن تتبين صلاحه وفساده ، فهذا السلطان كما أحب لك أن تفهمه أشبه بسلطان الأب الذى عليه أن يضع رجل صغيره على أول الطريق الى الكتاب ليضله به والخصبى بعدها أمر المضى خيه أو التحول عنه بيديه .

وهؤلاء الشيعة كان لهم رأى يؤمنون به ويؤمن به معهم الناس ، ويؤمن به مع الأيام أناس آخرون ، ولكنهم كانوا قليلين إذ كانوا على رتبة من سلطان الخصم ، فلا يفتح لهم عقل ، ولا يفتح لهم قلب لسماع الدعوة ، ولم يكن العلويون يملكون هذا السلطان الذى فى أيدي خصمهم ليجمعوا الناس حولهم اجتماعاً قسراً ليلقوا اليهم ما يحبون ، وإنما كان العلويون ودعاة العلويين يلمون بالناس لما لا يتلبثون ، والناس يتلقفون عنهم لما عجلين ، من أجل ذلك امتد بالعلويين الزمن ، وعانى الدعاة المحن ، ولم يصل العلويون الى ما وصلوا اليه الا بعد دورة طويلة دارتها عجلة الأيام على أجساد وأجساد ، وأزهقت ارواحاً وارواحاً ، وطوخت فى السجون بأناس وأناس ، وإذا هم آخر الأمر أصحاب الأمر ، وإذا السلطان فى أيديهم ، وإذا هم يملكون أن يجمعوا الناس اليهم ، وأن يسخروا ذلك السلطان فى خدمة هذا الرأى ، بعد أن كانوا يسخرون الرأى لكسب هذا السلطان .

وما أن ضمن العلويون السلطان حتى اتجهوا بعيونهم صوب الشام يريدون أن يضموها الى ملكهم الذى أصبح لهم فى مصر ، ولقد كانت الشام فى ظل مصر يوم أن كان الاخشيديون على مصر ، ولقد أصبحت محررة الى الفاطميين ، اذن فما بال الشام لا يكون الى الفاطميين أيضاً ، ثم ما بال دمشق فيما بعد لا تكون مركزاً لنشر الدعوة الى العراق وما بعد العراق .

وهكذا أخذ الفاطميون يستغلون السلطان أوسع استغلال ، كلما وقع فى أيديهم مركز للدعوة طمعوا فى غيره ، وأغلب الظن أنهم حين استولوا على مصر كانوا قانعين بها مركزاً وسطاً لنشر دعوتهم ، فإذا هم حين ينزلون مصر وتصبح مصر فى أيديهم ، تفتح أنفسهم لأمل أوسع ، ويجدون مصر لا يصل اشعاعها الى البلاد النائية ، ويرجون أن يكون لهم مركز آخر يبلغ اشعاعه الى ما يريدون . ولا ضير عليهم بعد هذا أن يتلمسوا لذلك الفتح حججه ، وأن يقولوا ان الشام كانت للاخشيديين فى مصر ، ولقد آلت مصر الى الفاطميين فيجب ان تثول الشام الى الفاطميين .

وهكذا أخذوا يصورون قضاياهم هذا التصوير السياسي ، لا يريدون أن يصوروها تصويراً مذهبياً ، إذ السياسة قضية عامة من اليسير أن يجتمع الناس عليها كلهم ، والمذاهب قضايا خاصة ليس من السهل أن يجتمع الناس عليها كلهم ، وما أحب الفاطميون أن يعدلوا عما لاخلاف عليه إلى ما الخلاف عليه واقع . فاختاروا أن يصوروا أعمالهم وفتوحهم ذلك التصوير السياسي ليأمنوا الخلاف عليها .

وبعد حياة حافلة بالأعمال الكثيرة ما بين فتح للشام وفلسطين ، وما بين تشييد وتعمير ، وما بين ابتداء مواسم وحفلات ، مات المعز بعد أن حكم أربعاً وعشرين سنة . قضى في مصر منها نحواً من أربعة أعوام . وخلفه على الملك ابنه العزيز بالله ، فقضى في الملك نحواً من عشرين عاماً ، تزيد عليها قليلاً ، قضى أكثرها في حرب القرامطة الذين هالهم أن تخرج الشام من أيديهم ، وكانت لهم عليها اتاوة .



وفي رمضان من عام ست وثمانين وثلثمائة — وهو العام الذي توفي فيه العزيز بالله — يوبع الحاكم بأمر الله بالخلافة . ومن قبل هذا بأعوام ثلاثة كان العزيز أبو الحاكم قد عهد إليه ، وكان عمر الحاكم عندما عهد إليه أبوه لا يجاوز الثامنة ، كما كان عمر الحاكم عندما ولي الخلافة لا يجاوز الحادية عشرة إلا بأشهر تكاد تبلغ السنة . من أجل ذلك قام إلى جانبه وصي ، هو أستاذه ومربيه « برجوان » ولقد ظل « برجوان » صاحب الأمر دون الحاكم إلى أن بلغ الحاكم الخامسة عشرة من عمره .

والحاكم بأمر الله بين الخلفاء الفاطميين حاكم ملحوظ ، وعهده من عهود الفاطميين عهد ملحوظ ، يكاد ينسى الناس كلهم الخلفاء الفاطميين كلهم ، ويذكرون الحاكم . ويكاد الناس كلهم ينسون عهود الخلفاء الفاطميين كلها ويذكرون عهد الحاكم ، لا لأن الحاكم شغل بالفتح وشغل ببسط السلطان ، ولعنه لأنه شغل بأشياء داخلية ، فلقد عاش الحاكم رأيه ومعتقده أكثر مما عاش لسياسة .

وكان انبساط السلطان القاطمى واستقرار الدولة كان لهما أثر
اى أثر فى لفت الحاكم عن أن يسخر السياسة فى خدمة العقيدة
والمذهب ، ونفتاه الى أن يعيش للعقيدة والمذهب ، وهكذا قضى
الحاكم حياته واليا مشغولا بأمر العقيدة وأمر المذهب ، يعنف على
النصارى واليهود ، ثم يقرب اليه النصارى واليهود ، يهدم
الكنائس ثم يعود فيترك هدمها .

وهكذا بدأ الحاكم مترددا كل التردد ، يضى على نفسه لونا
من ألوان الالهام والاستيحاء ، وإذا هو على أثر هذا النزاع الذى
أثاره بينه وبين السنين يخلق بين يديه طائفة من الناس تغلو فى
أكباره ، وإذا هى تكاد تؤله . وهذه الطائفة هى طائفة الدروز الذين
شغلوا الحاكم بما ابتدعوه حوله ، وشغلوا الناس بهذا الذى ابتدعوه
حول الحاكم ، وفتحوا على الناس بابا من الفتنة فى الرأى جديدا .

لهذا عاش الحاكم ثقيلًا على الناس لا يثق به الناس حتى
تتبدل ثقتهم به بعد حين شكًا ، ولا يثق هو بالناس اذ سرعان ما
تتبدل ثقته بهم شكًا .

وفى ظل هذا تعب الناس وتعب الحاكم ، وكان تعب الناس
أشد من تعب الحاكم ، فلقد كان تعبهم للهوا من اللهو ، وكان تعب
الناس جدا من الجد ، يتبدل الحاكم من حال الى حال ليسرى عن
نفسه ويأتس بما يفعل ، ويتبدل الناس مع الحاكم من حال الى
حال يحملون الجهد ويعانون المشقة .

ولقد أطمع هذا التقلب من الحاكم ، كما أطمعت هذه المحنة
التي امتحن بها الناس من الحاكم ، أن يغير على مصر مغبرون لم
يقلح الحاكم فى صيدهم والقضاء عليهم الا بعد جهد ومشقة .

وقضى الحاكم نحوا من خمسة وعشرين عاما يشقى بالناس
ويشقى به انفس ، وإذا هو مقتول ، بعد هذه الاعوام الخمسة
والعشرين .

ويعزو نفر من المؤرخين قتله الى تدبير أخته ست الملك ، فلقد
دبرت لقتله خوفا على نفسها من شره ، ثم لما بدا عليه من ميله الى

الدروز الذين الهوه . كما يعزو نفر آخرون قتله الى رجل مصرى
من الصعيد قتله وغيره للدين .

فان كانت الاولى فهي تدلك على ما كانت تعتمد عليه ست
الملك أخته من غيرة على الدين فى الظاهر .

وان كانت الثانية فهي تدلك على ما كان يحمله أهل مصر -
وما قتله الا واحد من عامتهم - من حمية للدين الذى وجدوا الحاكم
يكاد يعدو عليه .

والاثنتان معا تكشفان لك عن أن الحاكم كان على خلاف
ما يرضاه الناس للخليفة ديناً وعقيدة ، وأن الناس كانوا ضيقين
به ، يستوى فى ذلك أكبرهم وأصغرهم ، والمحيطون به والبعيدون
عنه ، يمثل لك الجانب القريب أخته ، ويمثل لك الجانب البعيد
هذا الرجل الذى قيل عنه انه قتله .

وهكذا مضى الحاكم دون أن ينفع نفسه ، ودون أن ينفع
الفاطميين ، ودون أن ينفع العقيدة الفاطمية ، بل لعله كان نقطة
التحول التى عندها بدأت العقيدة فى الفاطميين ترجع انقهقرى ،
وبدأ الناس لا يجدونهم الى تأييدهم أسباب ، وبدأت تلك الدولة التى
وجدت لتمضى الى الأمام تقف لتمود الى الوراء ، وبدأ هذا الملك
الذى ناله أصحابه بعد جهاد طويل لا يبشر بأنه سيبقى الى أمم
طويل . وبدأت الدولة التى دخلت الى الحياة أحرص ما تكون عليها
تخرج من الحياة أسف ما تكون عليها .

وهكذا يبني البانون أعنى ما يكونون بأن يشيدوا ، لا يقدر
ان سيرتهم أغفل الناس عما بذلوا وأبعدهم عما ضحوا . ولو احس
البانون ان جهدهم للعابثين لكفوا ، ولو أدركوا أنهم أراقوا الدم
ليهدره من بعدهم لأحجموا ، ولو علموا أنهم بذلوا الأرواح ليستروح
بنا من بعدهم لضنوا بأرواحهم ، ولكنها سنة الحياة لا تدرى كيف
تمضى ، يؤسس جاد لعابث ، ويجمع قاصد لمسرف ، ويبنى بان
ليادم ، ويسعى ساع لقاعد ، فإذا ما كسبته الحياة على أيدي
الجادين القاصدين البانون الساعين تفقده على أيدي العابثين المسرفين
الهادمين القاعدين، وما كان عمل الجادين ومن اليهم لهم نفعه ، كما

لم يكن عمل العابثين ومن اليهم عليهم شره ، بل ان المفيد من هذا النخبر وذاك الشر أمم وشعوب بين هؤلاء وهؤلاء تقطعي ثمن هذا الخير عن بذل من دماء وأرواح ، وتنال غرم هذا الشر مسرفا عليها غيما هو أكثر من الدماء والأرواح .

١٩

ولقد قامت الدولة الفاطمية حين قامت يرى اصحابها - ويرى الناس الذين ساندوها معهم - انهم أحق بزعامة المسلمين لأنهم من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهم نسله من فاطمة رضي الله عنها ، ثم هم من نسل علي بن أبي طالب الهاشمي كرم الله وجهه ، فهم هاشميون أولا ظلمهم الأمويون حين اغتصبوا هذا الحق منهم ، وهم فاطميون ثانيا حين استأثر بهذا الحق العباسيون دونهم .

بهذه الحجة السياسية ذات الصفة الدينية دعا الفاطميون لأنفسهم ودعا معهم الناس ، تغلب الصفة الدينية الصفة السياسية ، فختستحيل الحجة السياسية عقيدة دينية ، والناس في ظل ما يمت إلى الدين بسبب غيرهم في ظل ما لا يمت إليه بسبب ، وما كان المسلمون مع تلك الأدوار التي مرت قد استقامت لهم الصفات السياسية المستقلة في الحكم ، بل عاشوا تلك الأدوار لا انفصال لسياستهم في إقامة الحاكم عليهم عن هذه انزعجة التي أثرت منذ بدأ الخلاف بين الأمويين والهاشميين على الحكم ، فما نظروا إلى هذا الحكم كما نظروا إليه حين اختاروا أبا بكر ، ولا نظروا إلى هذا الحكم كما نظروا إليه حين ولي عمر ، ولا نظروا إلى هذا الحكم نظرهم حين شغلوا باختيار عثمان ، ولكنهم حين اختاروا عثمان بدعوا يرجعون شيئا مما كسبوا ، وحين اختلفوا على علي أخذوا يثيرون شيئا على ما بقي في أيديهم مما كسبوا ، وحين مكثوا لمساوية استعدوا ليفقدوا كل ما كسبوا ، وحين ورث البيت الأموي الحكم ، كانوا قد فقدوا كل ما كسبوا ، فأشقوا أنفسهم وأرخوا لحكامهم لينعموا وينعم في ظلمهم نقر معدودون .

وبقى هذا الخلاف على الحكم قضية كبرى شغل بهنسا
الذين نالوه يدافعون عنه ، وشغل بها الذين حرموه يسعون اليه ،
وشغلت الأمة مع هؤلاء وهؤلاء تدفع الثمن غالبا من دماء وأرواح
وراحة للذين نالوه تدفع عنهم ، وتدفع الثمن غالبا للذين حرموه من
دماء وأرواح وراحة وهم ينشدونه تسعى معهم اليه ، وعبرت هذه
الأمة التي أوتيت أسباب الخير من دين قويم ، يقيم لها حياتها ،
ملفوفة عما تمكن به لتلك الحياة القويمة . لا يلفتنا عن ذلك أنها
كسبت مجدا وكسبت فتوحا ، ولكن يردنا اليه تلك الولايات التي
ذاقتها الأمة ، ثم ذلك الانهيار السريع الذي منيت به ، ثم ذلك
التراخي الذي مكن منها خصومها فقطع عليها ابقاء الطويل الممتد ،
وحال بينها وبين أن تكسب أكثر مما كسبت ، وبين أن تكون الأمة
الخالدة ، وأسباب الخلود في يديها .

ثم اذا تلك الأسباب السياسية ذات الصفة الدينية التي دخلت
بها الفاطميون إلى الحكم تفقد صفتها الدينية التي حمت تلك
الأسباب السياسية ، فاذا الناس يتنكرون لتلك الأسباب السياسية
حين أنكروا على الفاطميين الصفات الدينية ، واذا الناس يرون تلك
الصفات الدينية التي خرج عليها انفاطميون حجتهم في الخروج
عليهم ، واذا الفاطميون يفقدون الأسباب التي جمعوا الناس حولهم
بها ، واذا هم في واد والناس في واد ، ولقد خسر الفاطميون ولكن
الناس كانوا أكثر خسرا ، فلقد ذهب ضر الفاطميين بأنفسهم
بذهابهم ، وبقي لامة ضرها الذي نالها ، ولقد جنى على الفاطميين
خلف لم يرعوا للسلف عهدهم ، وكما جنى هذا الخلف على
الفاطميين جنى على الأمة مع هذا السلف .

ولأمر ما أراداه نفر من المتسللين إلى القومية العربية فآلقوا في
روح الضعفاء من الخلفاء انفاطميين أنهم غير بشر ، وأنهم فوق البشر ،
فلقد أخذوا على المهدي عبيد الله شيئا من ذلك الخروج ، ولا يعنينا أن
المهدي أراداه ، ولا يعنينا أن غير المهدي من المحيطين به المفترضين
أرادوه ، ولكن يعنينا أن المهدي سكنت عنه ولم يبطله ، فلقد أحاطه
الناس بهانة من التقديس ، يزعم بعضهم أنه المهدي ، ابن رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، يزعم بعضهم أنه حجة الله على خلقه ،

ويسر بعضهم الى بعض أنه رسول الله ، وبنوا بعضهم في الحديث الى بعض فيقولون : هو الله الخالق الرازق .

وما نشك في أن كثيرا من هذا كله كان لغوا من اللغو ، وما نشك في أن المهدي لم يكن يرى هذا ، ولكننا حين ننفي هذا لا يجب أن ننفي أن المهدي كان يميل الى أن يضفي على نفسه شيئا آخر غير هذا ، يريد به أن يكون غير الخلقاء السابقين ليغرس في القلوب محبة لا تنفك ، ويغرس في النفوس تعلقا لا يزول ، فأتاح للناس أن يجعلوا ما أراد غير ما أراد ، فإذا هذا الذي شاع يتأكد ، وإذا هو مع هذا الذي شاع وتأكد لا يجب أن يدفعه ، يحسبه شيئا من المكسب ، يذهب ما فيه من غلو ويبقى له ما فيه من قصد ، فإذا ما في الأمر من غلو يبقى ليقتصد عليه شأنه ، وإذا ما في الأمر من قصد لا ينتفع هو به .

وعلى أية حال فلقد كان المهدي يؤمن على صورة ما يذهب أقام عليه الدعوة ، هو هذا المذهب الاسماعيلي الذي مر بك ، لم يشأ أن يجعل الأمر سياسة تتصف بتلك الصفة الدينية ، التي مهدت له أن يدخل الى الحكم ، وإنما أراد أن يجعل من تلك الصفة الدينية عقيدة جديدة تجعل الحكم له ولا له لا يخرج عنهم .

من أجل ذلك جد المهدي في نشر الدعوة لمذهبه لا لسياسته ، وثقده كان من الخير له أن يجمع الناس حول سياسته التي يظهرها الدين ، والتي دخل بها الى الحكم ، لا أن يقيم بين يدي سياسته عقيدة لا يعرفها الناس ليجمع منها وسيلة للبقاء في الحكم .

ولكن الفاطميين وصلوا الى الحكم بتلك الصيغة الدينية ، عرفوا قدرها ، وعرفوا أنهم لو لم يكونوا لها مالكن ما دخلوا الى الحكم ، فالتفتوا الى تلك الصفة الدينية يريدون أن يجعلوا منها شيئا آخر ، ليضمنوا الحكم الذي دخلوا اليه ، فإذا هذا الجرح يصبرهم الى غير ما أحبوا ، وإذا هم يخرجون من الحكم بما أرادوا أن يمكنوا لأنفسهم به .

ولقد خلف الفاطميون المغرب بعد أن أمضوا به نحوا من ستين عاما ، وحين خلفوه تركوا من خلفهم دعايتهم يدعون لهم الناس ليدخل من لم يكن قد دخل في مذهبهم على الدينونة لآل البيت ، وكان السنيون يقفون لهم بالمرصاد هناك ، من أذن منهم نال من عطاياهم ومن أنكر عليهم أنكروا عليه ، ونال من عذابهم واضطهادهم وإذا المغرب في فتنة شاملة يشارك فيها العامة الخاصة ، وإذا الدعوة الفاطمية تضعف لتزول ، وإذا المغرب الذي بدأ فاطميا يعود غير فاطمي ، وإذا هو في سنة ٤٣٣ هـ قد قطع كل ما كان بينه وبين الدعوة الفاطمية من صلة .

ولقد دخل الفاطميون الى مصر بهذا السبب الاول الذي دخلوا به الى المغرب ، فلقد وجدوا في مصر كما وجدوا في المغرب قلوبا تميل اليهم وتعطف على حقهم ، ولقد كان الناس في مصر كما كانوا في المغرب لا يعرفون للفاطمين غير هذا السبب الطيب الحلو الذي يجذب الناس نحوهم ، بهذا قنع الفاطميون أولا ، وبهذا اقتنع الناس ثانيا ، ولكن الفاطمين بدؤوا يذيعون عن أنفسهم شيئا غير الذي دخلوا به على الناس وأحبهم به الناس ، فإذا هم يحملون دعوة لم يعرفها الناس لهم أولا ، وإذا الناس يعرفون لهم دعوة تردهم الى تفكير وتردهم الى تحليل مما أعطوا .

وأحب أن أصور لك تلك الدعوة كيف استحال من حق يسير الى حق معقد ، ومن فكرة هينة على العقول والقلوب الى فكرة مستعصية على العقول والقلوب ، ومن وسيلة الى اقامة حكومة عادلة قلوب الناس متعلقة بها ، الى وسيلة في اقامة حكومة مستبدة قلوب الناس منصرفة عنها ، ومن سبب رغب الناس فيه يستملون فيه عن ايثارهم لآل البيت ، الى سبب رغب الناس عنه يستملون فيه عن ايثارهم لدين سيد هذا البيت رسول الله الى الناس كافة .

فلقد بدأت الدعوة الاسماعيلية التي دعت الى اامة اسماعيل ابن جعفر الصادق ترسم لنفسها نظاما ذا صفات ، تعنى ان

تجمع الدنيا لها عن طريق ذلك النظام ، لا تعنى أن يكون للدنيا نظامها الذى هبأ لها ادين ، تريد أن تمكن لنفسها بنظامها الذى ابتدعته ، ولا تريد أن تمكن للدنيا بذلك النظام الذى أرادها لها الدين ، فهى قد عنت نفسها لتفرض نفسها على الناس ، وعنت اناس لتخضعهم لها ، من أجل ذلك دبرت لنفسها ذلك النظام انذى ألخصه لك فى هذه الأسطر :

فكان الدعاة يبدعون الناس أول ما يبدعونهم به باليسير الذى يتفق وعقل المدعو ودينه ومذهبه ، ثم يثيرون شكوك الناس حول المشكل من المسائل الدينية ، فإذا ما أنسوا من الناس ميلا الى استكناء هذا المشكل انتقلوا بهم الى أن علم هذا عند الأئمة السبعة من ولد اسماعيل ، وأنه لا مناص من اتباعهم للنجاة من عذاب الله على أيديهم .

وبهذا يخلعون المدعو عما يعتقد الى ما يعتقدون ، ويؤمن معهم بالأئمة السبعة : على ثم الحسن ثم الحسين ثم على زين العابدين ثم محمد الباقر ثم جعفر الصادق ثم اسماعيل ابنه ، مؤيدين دعواهم تلك بأن الله قد جعل الكواكب السيارة سبعة ، وكذلك جعل السموات سبعا والأرضين سبعا ، لذلك كان هؤلاء الأئمة سبعا ، يسقط بعضهم اسماعيل ويجعل الإمام السابع ابنه محمدا ، ويجعلون هذا الإمام السابع هو صاحب الزمان ، وأن عنده علم الباطن وعلم التاويل ، وأنه يعرف الأسرار وأن دعائه هم الوارثون : وكما كان الرسل الذين جاءوا بالشرائع تسبعة كان الأئمة سبعة ، لكل رسول صاحب يأخذ عنه ، ويكون ظهيرا له فى حياته ، وخليفة له بعد وفاته . وهؤلاء الأئمة السبعة هم المساعدون . هم الأساس والصامتون ، يمتنون بالأساس أولهم وهو على ، ويعنون بالصامتين الستة من بعده . الى أن يصلوا بالدعوة الى أن هذا الإمام السابع فى مكان النبى وأن طاعته واجبة . وفى ثنايا هذا النظام كثير من الحشو الفلسفى المضلل ، الصارف للناس عن المنهج الدينى السليم ، أراد به المتسللون الى العرب أن يزلوا عقائدهم ، وأن يصرفوهم عن دينهم أولا ، ثم عن دنياهم ثانيا ، التى دخلوها بفضل هذا الدين أقوياء وكانوا على وشك أن يجعلوا الدنيا كلها لهم ديناً وسياسة .

ولقد اشترك الفاطميون في هذه الدعوة وحاطوها بالكثير من عنايتهم ، وجعلوا لداعي الدعاة أيامهم شأنًا أي شأن ، وجعلوا مقره دار الخلافة ، وعنه يأخذ الداعون وينتشرون في الأرض ، كما أضفوا على داعي الدعاة هذا صفات لها قدسية مستمدة من قدسية الخليفة ، فكان يعد أن يحاضر داعي الدعاة الناس ، يقبل عليه الناس فيقبلون يديه ثم يمسح على رؤوسهم برقعة فيها أمضاء الخليفة .

وهكذا رضى الخلفاء الفاطميون من الناس أن ينظروا اليهم على أن لهم قوة الهية ، ويقال ان نقرا من المغرضين الذين كانوا يحرسون على أن يشيع هذا بين الناس كان ينصح المعز بأن يقضي يوما عينه له محتجبا عن الناس ، غير ان المعز أغراه ذلك فاحتجب عن الناس أشهرا وقيل عاما ، حتى ألقى في روع الناس أنه صعد الى السماء ، ويتمكن هذا في قلوب الأغرار ، فكان اذا رأى أحدهم سحابة تمر فوق رأسه ، وكان راكبا ترجل ورفع اليها بصره في خضوع وهو يقول : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

وفي هذا الشعر الذي مدح به ابن هانيء المعز ، ما يكشف لك شيئا عن ارتياح المعز لما أضفاه الناس عليه ، فلقد أنشد ابن هانيء المعز ، والمعز يسمع :

هو علة الدنيا وقد خلقت له ولعله ما كانت الأشياء

فلم يقل المعز شيئا ، وقد نقول ان المعز رأى ذلك غلوا من غلو الشعراء . ولكننا نرى ابن هانيء يخطو من هذا الى غيره فيقول للمعز :

أقسمت لولا أن دعيت خليفة لدعيت من بعد المسيح مسيحا
شهدت بمفكرك السموات العلى وتنزل القرآن فيك مسيحا

فما ينكر عليه المعز . وقد نقول ان المعز عده أيضا غلوا آخر من غلو الشعراء ، ولكن ابن هانيء يعدو هذا وذاك الى غيره فيقول للمعز :

هذا الذى ترجى شفاعته غدا حقا وتحمد أن قرأه النار
ويسكت المعز فلا يقول شيئا ، وما نظنه عد هذا غلوا من غلو
الشعراء . فلقد كان ابن هانىء من هؤلاء الدعاة للدعوة الفاطمية
بشعرهم وحسبك أن تقرأ له هذين البيتين اللذين بعث بهما إلى المعز
ورضيهما المعز :
وروح هدى فى جسم نور يملئه
شعاع من الاعلى الذى ألم بجسم
فاقسم لو لم يأخذ الناس وصفه
من الله لم يعقل ولم يتوهم .

٦١

وهكذا توسط الفاطميون الأمر مع الناس بغير ما استقبلوهم
به ، وإذا المصريون بعد المغاربة لم يرضوا أن يؤله الفاطميون أنفسهم
فسخطوا ، وخسر الفاطميون الوسيلة التى دخلوا بها إلى قلوب
الناس ، أو دخلوا بها إلى الحكم بعد أن كسبوا قلوب الناس ، وخسر
الناس الفاطميين بعد أن لفوا حبلهم بحبلهم ، وبعد أن مقدوا الأمل
على تلك التجربة التى رجوا فى ظلها الخير ، وبعد أن بذلوا فى
سبيلها ما بذلوا ، وإذا الناس خاصتهم وعامتهم يتنكرون لعقيدة
الفاطميين أولا ليتنكروا لحكمهم ثانيا ، فعلى سلم العقيدة رقى
الفاطيون للحكم ، وعلى سلم العقيدة نزل الفاطميون عن الحكم .
تحس ضيق المصريين بالفاطميين وتنكرهم لهم عقيدة وحكما
فى هذين البيتين اللذين كتب بهما شاعر مصرى فى ورقة وضعها
على المنبر ، ويرقى الخليفة العزيز أبو الحاكم المنبر فتقع له الورقة ،
فإذا فيها :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والعمالة
ان كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقة
كانت هذه حال العزيز وحال الناس منه ، وما كان العزيز
يسرف فى الإفصاح عن نفسه إفصاحا كثيرا ، وكانت حال الناس مع

الحاكم ابنه أشد تنكرا وأشد سخطا ، لأن الحاكم أفصح عن نفسه أفصاحا كثيرا ، لم يرده عن غيه ما وقع لأبيه وما وقع لمن قبل أبيه من أجداده ، لأن هؤلاء الحكام كما قلت لك كانوا يريدون الدنيا لهم لا للناس معهم ، وكانوا يريدون أن يمكنوا لأنفسهم لا للناس ، وهم حين فعلوا الأولى خسروا أنفسهم بعد أن خسروا الناس ، ولو فعلوا الثانية بكسبوا أنفسهم بعد أن يكسبوا الناس •

ولقد دخل الحاكم ، الحياة يؤمن بما يقول الغلاة : ان روح الاله حلت فيه ، ويقر ما قاله غال من الغلاة في المسجد العتيق ، وبحضرة قاضى القضاة : باسم الحاكم الرحمن الرحيم • ويرتاح الى ما كان يفعل به بعض الغلاة حين يروته فى الطريق فيركعون ويصيحون : أنت الواحد الأحد والمحيى المميت •

ولو كان الحاكم ذا فطنة لرد هذا على الغلاة • وهم قلة ، لتخلص له قلوب الناس ، وهم كثرة ، ولكن الناس اذا خدعوا ضلوا ، واذا ضلوا فقدوا الأسباب الصحيحة ، وأبعد الناس عن أن يضل هو أبعدهم عن أنه يخدع ، فليس شيء شرا من الخديعة على عقول الناس ، اذا دخلت على عقول الناس أفسدت كل ما لهم ، فلا يعوذون يصدرون عن حكمة ، ولا يعوذون يصدرون عن روية ، ولا يعوذون يصدرون عن تدبير •

وهكذا دخلت الخديعة على عقل الحاكم كما دخلت على عقول غيره من قبله ، ولكن حين دخلت على عقل الحاكم صادفت منه هوى كثيرا وميلا كبيرا ، فاذا هو مع الغلاة ، واذا هو يمعن امعان الغلاة ، لا يدعهم وحدهم يحملون العبء فيجد له عند الناس شبه عذر ، بل يمشى مع الغلاة يحمل فوق عبتهم ، فاذا هو لا يجد عند الناس عذرا ، أو شبه عذر •

فلقد رووا عن الحاكم أنه كان يحتفظ عنده بتمثال يسمىه أبا الهول ، وكان اذا سرق من تاجر شيء ذهب الى الحاكم يشكو اليه ما سرق منه • وكان الحاكم يقب الشاكي بين يدي التمثال يقص عليه ما ضاع منه ويصفه له • وكان الحاكم قد أقام فى جوف التمثال رجلا يستمع ويحيب • وكانى بالحاكم كان على علم بما يسرق من

الناس ينقله اليه عيونه ، ويلقيه هو على هذا الرجل الذي أقامه في جوف التمثال . أو لعل الحاكم - وهذا ظن - هياً لتلك السرقات أن تقع بعلمه حتى لا تقوته ، وحتى يتمكن من أن يقول رجله قولاً غير كاذب ، وسواء أكانت هذه أم تلك ، فلقد عرف الناس أن تمثال الحاكم يخبر بالغييب ، وأن تمثال الحاكم يعرف السرائر ، وأن تمثال الحاكم سر من الحاكم ، فصدق به المفرورون المخدوعون . وأضاف هذه الغلاة الداعون الى الحاكم ، فاذا هم يجمعون الى حججهم حجة أخرى .

وكان الحاكم يقسو على السارق حين يخبر رجله به ، فينكل به تكالاً شديداً ، ثم يقتله . فالتقى بهذه الحيلة درساً قاسياً على السارقين . فاذا هم يكفون عن السرقة ، واذا التجار يتركون حوانيتهم في أمن لا يكادون يخلقونها .

يحسب الحاكم أنه علام الغيوب ، ويحسب الناس قد آمنوا به علاماً للغيوب ، فتطمئن نفسه ، وما اطمأنت نفوس الناس فلقد عرفها الناس حيلة وعرفوا أنهم يجهلون أمرها ، وعرفها الحاكم أولاً ثم اغتر فحسبها حقيقة ، وحسب الناس معه على هذه الحقيقة .

وهكذا يخدع المخدعون أول ما يخدعون أنفسهم ، يخالون بادئ ذي بدء أنهم قد خدعوا الناس ، وما خدعوه ، واذا هم قد خدعوا أنفسهم ، وسلم الناس ولقد مضى الحاكم في حيله لم يبرأ منها ولم يبرئ نفسه منها ، يريد أن يملأ نفسه غروراً ويريد ألا يفقد في قلوب الناس ما أحب أن يكون له في قلوب الناس ، فاذا هو يصطنع عيونا له من النساء ، يدسهن على الناس في دورهم لينقلن له ما يجري في البيوت من شئون خاصة ، فاذا هو على علم كثير بما يدور هناك ، علم مرده الى هذه الحيلة الدنيئة ، يحيله هو الى علم بالغييب ، ليضفي على نفسه تلك الصفة العليا ، التي هي من صفات الله .

يروى ابن خلكان فيما يرويه عن الحاكم أنه كان جالسا في مجلسه العام وهو حافل بأعيان دولته ، فقرأ بعض الحاضرين قوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم

لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) والقارىء
فى أثناء ذلك يشير الى الحاكم • وحين فرغ القارىء من قراءته ،
وحين فرغ من اشارته انبرى رجل صالح فى المجلس فقرا : (يا ايها
الناس ضرب مثل فاستمعوا له • ان الذين تدعون من دون الله لن
يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه
منه ضعف الطالب والمطلوب • ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوى
عزيز) •

ويقول ابن خلكان : ان هذا الرجل الصالح عندما انتهى من
قراءته تغير وجه الحاكم ، وأراد أن يكشف عما فى نفسه ، فوهب
للأول مائة دينار ، ولم يهب للثانى شيئا •

وبهذه تلك الحاكم على ما فى نفسه • ذلك على أن ميله هنا
لا هناك • وكان الناس يعرفون هذا له • وعرفوا أنه لابد واقع على
هذا الرجل الصالح قمعاقيه أشد العقاب ، وخاف الناس على هذا
الرجل الصالح أن يناله عقاب الحاكم ، فنصحوا له أن يغيب عنه
وأن يختفى ، وخرج هذا الرجل للحج لينجو من الحاكم ، غير أنه
لسوء حظه وحسن حظ الحاكم غرق فى البحر ، فاذا الحاكم يضيف
الى نفسه شيئا ، واذا الغالون يضيفون الى الحاكم ما أضاف هو الى
نفسه ، واذا هو يعد هذا يدعى الألوهية • وتبدأ الدعوة القائلة بأن
الله قد تجسم فيه ، وأخذ أتباعه يعلنون عبادته وتوحيده وتثنيته •

فثار المصريون الوادعون وأسرفوا فى الثورة ، واغتالوا كثيرا
من الدعاة وكثيرا من أنصار المذهب الفاطمى ، وثار الحاكم هو نفسه
فأسرف فى النيل من المصريين الوادعين ، وأطلق العنان للسودانيين ،
وكانوا جنده ، فاذا هم يبطشون بالمصريين الوادعين بطشا لا رحمة
فيه ولا هوادة •

وعلى أية حال فلقد كان سخط الأهلىين ذا أثر ، اذ نستطيع أن
نقول : انه كاد يرد الحاكم شيئا ما الى عقله ، فلقد كانت كتب الأمان
التي أعطاها الحاكم رعاياه من النصارى عام وفاته مفتتحة بما افتتح
به الخلفاء كتبهم ، فيها ورع وفيها خضوع • اذ يقول : بسم الله
الرحمن الرحيم من أمير المؤمنين عبد الله ووليه المنصور أبى على الامام
الحاكم يأمر الله •

لأندى لكان هذا لثورة الناس به ، وأن تلك الثورة ردتة الى
هذا العقل يعد التورط الطويل ، أم انه الموت حين سعت اليه
سواعيه رده الى عجزه الانسانى فانقلب يؤمن بأنه لا حول له ولا
قوة .

٢٢

وما أظن هذه الأخيرة التى جاءت للحاكم فى كتب أمانة شفعت
له ولا حولت الناس عن رأيهم فيه وفى هذا البيت ، فلقد ظل الناس
يعرفون الحاكم بصورته الاولى الطويلة ، ونم يعرفوه بصورته الأخيرة
انقصية ، ولو أن الدعوة الى الراى الفاطمى انقطعت بعد موت
الحاكم لأعطت الناس الفرصة فى أن يقولوا : ان الحاكم تاب وثاب ،
ولأعطتهم الفرصة فى أن يعرفوه بآخره لا بأوله ولكن الدعوة
الفاطمية بقيت ثم اشتدت ، فلم يشأ الناس أن يعدلوا عن رأيهم
الأول فى الحاكم ، بل ضموا اليه ما جاء على يد خلفه ، فاذا هو منهم
واذا هم منه على رأى ، واذا رأى الناس هو هو فى هذه الاسرة ،
لا ينظرون الى ما كسبوا على أيديها من مظاهر فى الحياة ، فلقد
عزوا هذا الى تطور الحياة وعزوا غيره الى الفاطميين ، فلم يذكروا
الفاطميين الا بما ابتدعوا من آراء أفسدت عليهم الحياة ، ولم
يذكروهم بما كان فى عهدهم من وثبات لمعت بها الحياة شيئا .

وما أظن نصيب الفاطميين بدعوتهم فى مصر كان خيرا من
نصيبهم بدعوتهم فى غير مصر بعد هذه الهزيمة الفكرية ، وما كان
يعنى الفاطميين غير مصر بقدر ما كانت تعنيهم مصر ، فلقد كانت
مركزا للدعوة والخلافة ، وكان غير مصر نواحى الدعوة لامركزا للدعوة
والخلافة ، وكانت الدعوة فى غير مصر تضم الى الفاطميين مؤيدين
أكثر مما تضم رعية ، لذلك لم يحم المؤيدون الدولة الفاطمية فى
تلك الأطراف من أن تسقط حين خذلتها الرعية ، ولقد كان المؤيدون
فى تلك الأطراف يلفتهم الى الدعوة أن لها دولة ، فحين ذهب الدولة
لم يعد يلفتهم اليها ما يغريهم بها ، ولقد فقد الداعون أنفسهم الحماية
حين فقدوا السلطان الذى حموا الدعوة به ، ولقد كان همهم الأول

ذاك السلطان ليظلوا به الدعوة ويمكنوا لها ، فحين فقدوه فترت نفوسهم وباتوا يحمونها ويحمون أنفسهم بسلطانهم هم أنفسهم ، وما كان أضعف سلطانهم ، ثم ما كان أضعف دعوتهم ، ثم ما أكثر ما أضعفوها هم به من غلو مفسد ورأى مضلل .
وبعد أن قتل انحاكم ظهرت أخته ست الملك وأجلست ابنا للحاكم صبيا لم يبلغ الحلم على كرسى الخلافة . وبأيع له الناس ببقية في قلوبهم من الخوف ، وبقية في نفوسهم من المحبة ، فما كان الناس قد قروا القوة كلها على أن يخلعوا عن نفوسهم الخوف ، وما كان الناس قد قروا القوة كلها على أن ينزعوا من قلوبهم المحبة القديمة المتوارثة ، ثم ما وجد الناس من بينهم رجلا ذا بأس وذا حزم يلتفون حوله ويولونه .

من أجل ذلك مضى الناس يبايعون لهذا الصبي ، يسكتهم أمل ، ويغريهم طمع ، في أن يجدوا على يد الابن ما لم يجدوا على يد الأب ، ثم هم قد وجدوا أخت الحاكم شاركت في قتله ، فما بالهم لا يزدادون أملا ولا يزدادون رجاء في هذا الفاطمي الجديد ، ثم إن الحاكم قد مضى مقتولا فما بالهم لا يزدادون أملا ولا يزدادون رجاء بهذا المدرس الذي لقنه الحاكم ليرعاه من بعده .

وهكذا كانت هذه الأسباب كلها مما أغرت الناس بالسكوت ، ومما أغرتهم بالصبر ، ومما أغرتهم بأن يبايعوا . والمصريون أميل الناس إلى الأمن إلا أن يفقدوا أسبابه كلها ، وأحرصهم على الطاعة إلا أن يدفعوا إلى غير الطاعة ، وأوفاهم قلبا بالمحبة إلا أن تتمحى من قلوبهم أسباب المحبة ، وأحب الناس في أن تمضى أمورهم رخاء لا ينجحون إلى الاضطراب إلا إذا حملوا عليه حملا ، هذا خلقهم لا عن ضعف واستكانة أو ذلة ، ولكنهم يحبون ألا يستعجلوا التجربة ، وألا يقطعوا عليها سبيلها ، وألا يثيروا حولها ما يفسدها إلى أن تسقط التجربة نفسها . من أجل ذلك عاشوا يمون التجارب كاملة لا يحسون لوما في دخيلتهم على محاولة منهم كانت ضد هذه التجارب التي مرت بهم ، وهم على ذلك مفيدون والخاسر غيرهم ، وهم أمة والخاسر فرد أو أسرة ، والأمم ذات تاريخ ممدود ، والأسر ذات تاريخ محدود ، وما تخسره الأسر ينضم إلى تاريخ الأمم عظة تنتفع بها ، ودرسا تستمل منه تاريخها .

وخلا الأمر ليست الملك دون الخليفة الصغير تدبره هي سنين
أربع ، وخلفت الحياة ، وخلفت الخليفة الصغير في رعاية خادم له ،
الى أن شب ، وحين شب شغلته الحروب بينه وبين الخارجين عليه
بالشيام الى أن مات سنة سبع وعشرين وأربعمائة .

فولى الأمر من بعده ابنه المستنصر ، فيلقى محنة كانت في
الحسبان ، فلقد انتقضت إفريقية عليه ، وقطعوا الخطبة له ، وخطبوا
للقائم العباسي .

وما ان مرت هذه المحنة حتى تلتها محنة أخرى ، كانت هي
الأخرى في الحسبان ، فلقد كان للمستنصر أم ، وكادت هذه الأم
أن تستأثر بالحكم دونه ، هي التي تصطنع الوزراء وهي التي
توليهم . فإذا ساء ظنها بأحدهم أوغرت صدر ابنها الخليفة عليه
فقتله ، فكان عدد من ولت من الوزراء ثلاثة ، وكان عدد من قتلت
من الوزراء ثلاثة ، يذكر المؤرخون لها هؤلاء الذين ولتهم وأوعزت
بقتلهم . كما يذكرون لها ولابنها الاستعانة بموال من الأتراك
ليمكنوا لها ، وما يفعل مثلها الحكام الا حين يفقدون ثقتهم برعييتهم ،
وكان الى جانب الأتراك عبيد ، كانوا هم الآخرون ليتمكنوا لها .

وتقع الفتنة بين الأتراك وبين العبيد ، يشور هؤلاء بهؤلاء ،
ويثور هؤلاء بهؤلاء ، وإذا الأمور مضطربة ، وإذا الناس في هلع
وقزع ، يصطلونها نارا أنى توجهوا ، ويقوى أمر الأتراك وإذا هم
يخرجون عن القاهرة الى الاسكندرية ودمياط فيستولون عليهما ،
ويقطعون الخطبة للخليفة الفاطمي في الاسكندرية ودمياط ، وفيما
حول الاسكندرية ودمياط ، وإذا زعيمهم يرسل الى الخليفة العباسي
ببغداد يريد ان يجعل أمر مصر اليه مرة ثانية ، غير ان المستنصر
صالحه .

وكما تعرض المستنصر لهاتين تعرض لغيرهما من حروب جرت
عليه ويلات وكلفته أموالا ، حتى ليقال انه غدا لا يملك غير بساطه
الذي يجلس عليه .

وإذا كانت حال الخليفة قد انتهت الى هذا الذي يحكونه عنه .
ترى الى أية حال انتهى الشعب ، ما نظنه هو الآخر الا بات خاوى
الرفاض ، لا يملك ما يقتات به بله ما يجلس عليه .

وما ساند المستنصر شعب مصر ، ولكن ساندته جند من هنا وجند من هناك ، فلقد استقدم بدرا الجمالى من الشام خوفا من أن يثور به الأتراك أخرى ، فحضر اليه بدر الجمالى فى جند من الأرمن وغيرهم من المأجورين ، ليتمكن له فى الحكم ، وليثبت له عرشه المتداعى ، وهكذا أحس المستنصر أنه غريب حيث يحكم ، ليس من وراثته أمة تشاركه الحكم ، ولكن من وراثته أمة ترخى له ليمضى فى تجربته . ولقد كان فى هذا درس يعيه المستنصر لو كان له أن يعي ، وما أظنه كان يفيد بعد من وعيه شيئا ، فلقد مهد له سلفه الى هذا السقوط ، ومهدت له أمه الى هذا السقوط ، ومهد هو نفسه لنفسه الى هذا السقوط ، وما أظن الدعوة أفادت فى ظل هذا الاضطراب المستمر ، وما أظن الفاطميين أفادوا شيئا حين أفسحوا للدعوة أن تأخذ صورتها المنفرة ، وما أظنهم الا ضيعوا على أجدادهم سعيهم المضنى ، وما أظنهم الا ضيعوا هم على أنفسهم ثمرة هذا الجهاد المضنى . ولقد كانت أمامهم الفرصة مواتية ليكسبوا شعبا الى جانبهم ، فإذا هم قد أبعدوا هذا الشعب عن جانبهم .

٤٣

ويموت المستنصر عن أولاد ثلاثة : أحمد ونزار وأبى القاسم . وكان المستنصر قد عهد لولده نزار . ويلجأ أبو القاسم الى عجمته ليكون له الأمر دون أخيه الذى عهد اليه أبوه . وتعين العمة أبا القاسم على أن يكون الأمر لها ، وتشهد العمة أن أخاها المستنصر عهد لأبى القاسم ولم يعهد لنزار . وتثور الفتنة بين الأخوين نزار وأبى القاسم ، ويقتل نزار ويتفرد بالأمر أبو القاسم . وكما خرج أبو القاسم على أخيه خرج عليه الناس فكلفوه حربهم ، وحين خرج الناس على أبى القاسم طمع فيه عدوه من الفرنج فكلفوه حربهم . ولئن خرج أبو القاسم من حربه مع الناس منتصرا فلقد خرج من حربه مع الفرنج منهزما ، فلقد أغاروا على بيت المقدس فقتلوا كثيرا وسلبوا كثيرا .

ويترك المستعلى أبو القاسم الملك ليليه من بعده ابنه أبو على الأمر بأحكام الله ، وكان عندها صغيرا لا يقوى على أن يركب جوادا ،

الا اذا أعانه غيره على ركوبه • وهكذا يخرج هذا النظام الارثى فى الحكم بالناس من ورطة الى ورطة ، يجعل الامم له يليها خلف عن سلف ، وليس للناس رأى فيمن يلى أمرهم ، وما كان أمرهم الا لهم •

وكان أمر هذا الخليفة الصغير الى أمير الجيوش الأفضل ، وما ان شب هذا الخليفة الصغير حتى تفكر للأفضل وقتله ونهب أمواله ، وكانت شيئا كثيرا ، وحين ولى الأمر على جيوشه أميرا غير الأفضل لم يلبث أن تنكر الأمر لهذا القائد الجديد فقتله •

وكما عبث الأمر بحياة الناس عبث بحياته ، فلقد كان يؤثر لذته ويؤثر لهوه فضاق به أتباعه فوثبوا عليه وقتلوه •

وكان الأمر لا يزال لأتباع الدعوة دون أن يكون للمصريين أصحاب البلد ، وكان أتباع الدعوة لا يزالون بين يدي تجربتهم يخرجون بها من ورطة الى ورطة ، وكان المصريون لا يزالون ناظرين الى تلك التجربة ، يخرجون هم الآخرون من ورطة الى ورطة ، وكان أتباع الدعوة يرجون أن يرتقوا الفتى جاهدين ، وكان المصريون يرخون لضيقهم ليلغوا غايهم التى يريدون ، وكانت ثورة الأتباع بزعمهم كفيلا بأن ترد المصريين الى سكون ، فسكنوا ينتظرون •

ولم يجد الأتباع الذين ثاروا بالأمر فقتلوه بين أيديهم ابنا للوالى يصلح لأن يولوه • ولم يريدوا أن يخرجوا بالأمر الى غير من يكون له بهذا البيت صلة أو شبه صلة ، فهم يؤمنون بدعوة وهم يؤمنون أن هذه الدعوة متصلة بهذا البيت عن قرب أو عن بعد ، ان لم تكن عن نسب فلتكن عن شبه نسب ، فابتدعوا بدعة جديدة ظنوا أنها تصلهم بهذا النسب • فاذا هم يبتدعون أن الأمر رأى امرأة حاملا وأوحت اليه الرؤيا أنها سوف تلد ذكرا ، وأوحت اليه الرؤيا بعد هذا أن يكون هذا الولد هو الخليفة من بعده ، كما أوحت اليه الرؤيا أن تكون كفاة هذا الولد الى رجل له قرابة بهذا البيت ، هو عبد الحميد بن أبى القاسم ابن المستضى •

وحين ابتدعوا هذا أقاموا عبد الحميد كافلا ، ولقبوه الحافظ لدين الله •

يجرى هذا كله والناس ينظرون ، يرخون لهذه التجربة كي تبلغ غايتها ، والدعاة غارون يخالون أنهم قد خدعوا الناس وما خدعوا غير أنفسهم ، ويخالون أنهم قد أقنعوا الناس وما أقنعوا غير أنفسهم ، ان صح أنهم قد اقتنعوا •

ويمضى الحافظ يولى ويقتل من يولى ، ويستبد بالحافظ وزير من وزرائه فيحذف اسمه من الخطبة ويدعو لغيره ويحبس الحافظ ، ثم يثور بالوزير نفر من الأتباع يقتلونه ويخرجون الحافظ من سجنه •

ويضيق الحافظ بأمره وأمر الناس فيجعل الأمر لابنه ليستريح هو ويريح الناس ، ولكن هذا الابن انذى أراد والده أن يحمل العبء عنه يختطفه الموت بعد شهرين ، وما بالحافظ أن يعود للأمر ثانية فيقيم له ابنا ثانيا •

ويطمع هذا الابن الثاني فى الأمر كله ، لا يريد أن يظل هو يحمل العبء ويظل أبوه خليفة له الغتم ، وحين عزم على أن يفعل نذر به أبوه ففتك بمن اجتمع الى ابنه كما فتك بابنه •

وما صفت الحياة للحافظ ولا أخلص له وزراؤه ، فلقه عاش بينهم يقتل ويشرد ، حتى اذا ما ضاق بالقتل وضاق بالتشريد ، قنع بأن يحكم وحده ، وقنع بالآلا يجعل الى جانبه وزيرا •

ثم يموت الحافظ بعد عمر طويل حافل بالمتاعب ، ويترك هذا الحكم المضطرب لولده من بعده : الظافر بأمر الله •

وما نظن الحياة مضت صفوا للظافر ، كما لم تمض صفوا لأبيه ، وكما شقى الحافظ بوزرائه وأشقاهاهم معه شقى الظافر بوزرائه وأشقاهاهم معه • ولكن الحافظ خرج من ذلك الشقاء بعد أن قتل من وزرائه دون أن يقتل ، وخرج الظافر من هذا الشقاء بعد أن قتل من وزرائه وبعد أن قتل • وما قتل الظافر عن خلاف فى السياسة كما قتل سلف له من قبل ، ولكنه قتل عن عبث ذميم لا يليق بخليفة •

فلقد حكوا عنه أنه عشق ابنا لوزيره عباس بن أبى الفتوح ،
وشاع ذلك بين الناس ، حتى ضج به عباس وضج به المخلصون
لعباس . فأشار الأصدقاء على عباس أن يقطع الألسنة بقتل الظافر ،
وأراد عباس أن يكون هذا لابنه نصير انذى تحدث الناس بهوى
الظافر له ، ليكون ذلك اقطع للاحدوثه وابلغ حجة على صلاحه .
وما قصر نصير فى أن يفعل ليمحو عن نفسه عارا كاد أن
يلصقه به الظافر ، وهو البرىء ، مما أراد الظافر بعبئه الفاضح أن
يحملة اياه ، وسأل نصير الظافر أن يزوره فى بيته ، فخف الظافر
الى هذه الزيارة ، ومعه نفر من خاصته . وما كاد نصير يقع على
الظافر حتى قتله ، وحتى قتل من معه ثم دفنهم جميعا فى داره .

ويثور أخوان للظافر يتهمان نصيرا بقتله ، ويثور عباس أبو نصير
فيتهم الأخوين بقتله ، وتقلب ثورة عباس ثورة الأخوين ، ويريد أن
يجعل له على الأخوين حجة فيقتلها ثارا للظافر . ويزيد ليؤكد
الحجة له فيخرج ابنا للظافر ، كان لما يبلغ الخامسة ، يحملة على
كتفه وينادى به خليفة ويلقبه الفائز بالله . ولكنه يحس الحرج
فيستولى على ما فى القصر من مال وعتاد ، ويخرج به هاربا ، يصحبه
ابنه ويصحبه أسامة بن منقذ ، وكان أول من أشار عليه
بأن يقتل الظافر .



وفيزع النساء فى القصر لمقتل الظافر ومقتل أخويه معه ،
ويلتفتن يميننا وشمالا الى من يكون لهن فى محنتهن ، فاذا هن يخترن
الصالح بن رزيك ، وكان واليا على الأشمونين ، فيكتبن اليه ،
ويسرع اليهن الصالح بن رزيك .

ولكن الصالح بن رزيك ما كاد يرد على هذا البيت آمنه حتى
نفس عليه من دعونه من نساء البيت ، واذا عمة للفائز تدبر لقتله ،
ويلعلم الصالح فيسرع الى قتلها قبل أن تقتله ، ويجعل كفالة الفائز
الى عمة له صغرى .

ويموت الفائز بعد حياة سائلة ، فرغ فيها للشعر وللأدب ،
والأمر لا يزال للصالح بن رزيك ، فيخف إلى القصر ويحضر بين
يديه أبناء الخلفاء ، لا يريد أبناء الفائز ، ولكن يريد أبناءه
وأبناء غيره ، ليختار من بينهم واحدا • وكان الصالح يريد الأمر له
لا يريد عليه مزاحما • فلم يختار أكبر الأبناء وإنما اختار أصغرهم ،
وكان أصغرهم عند ذلك ابن رجل من البيت ، كان عباس أبو نصر
قد قتله ، فبايع له الصالح وهو غلام ، ولقبه العاضد لدين الله ، ثم
زوجه ابنته ، ليضمن الأمر له كله •

وما فعل هذا الصالح إلا ليستبد بالأمر كما علمت ، وحين
استبد الصالح بالأمر أثار نساء القصر ، وكانت أكثرهن ثورة على
الصالح تلك العمة الصغرى التي كان الصالح عهد إليها بكفالة
الفائز • فدبرت لقتله ، فاجتمع له السودان فأثخنوه جراحا ، وحمل
إلى بيته وهو يجود بنفسه •

ويحكون أنه بقي يوما يعالج سكرة الموت ، وأنه أفاق هنيئة ،
فاذا هم يسمعون أنه يترحم على عباس ، الذي دبر لقتل الظافر •
وكانى بالصالح حين ترحم قد ندم على أنه لم يفعل مثله ،
وندم على أنه أعان من غد به •

وما نظن العاضد أرضى الصالح في قبره حين ولى الوزارة ابنه
رزيك بعده •

وما نظن العاضد أرضى الصالح في قبره حين مكن لابنه من
الأخذ بثأر أبيه ، فقتل العمة التي دبرت لقتل أبيه ، وقتل معها
غيرها ممن اشترك في قتله ، وما نظن الصالح مضى دون أن يحمل
العاضد تبعه دمه ، ودون أن يمضى وفي نفسه غصة منه ، ودون أن
يتترك أمر مقتله إلى الله ينتقم له ، ولقد انتقم الله للصالح عجلا ، ومد
للعاضد في حياته ليلقى مصرعا أشد من مصرعه ، مصرع الدولة
التي مهد لها أسلاف له سابقون ، وفرط فيها خلف لا حقون ،
كان هو آخرهم ، وكان ذلك المصرع على يديه •

فلقد أشار العاضد على رزيك بن الصالح بأن يصرف عاملا له على قوص ، وكان ذلك العامل على قوص هو شاور ، وحين عزل شاور جمع حوله من جمع وقصد القاهرة ، ويشاء القدر أن يقع رزيك أسيرا ، قبض عليه رجل من رجال شاور ، وما ان وقعت عليه يد شاور حتى قتله .

ويستقبل العاضد شاور غير ملق بالا لموت رزيك ، واذا هو يولى شاور الوزارة ، وكأنه قد أشار بما أشار لذلك ، واذا هو يطلق يد شاور في أموال بني رزيك فينهجها نهجا ، لا يبقى لاهلها منها شيئا ، وكان القدر أراد أن يضم الى سيئات بني رزيك سيئة أخرى ليضاعف له النكال ، ولكن شاور الذي نال ما نال ، اذا هو يخرج عما نال ، لتتم القصة ، فيغلب شاور على أمره رجل كان من أصفياء الصالح بن رزيك .

ويخرج شاور عن الوزارة كما خرج من قبل عن قوص ، وكما أخرجه عن قوص ابن الصالح أخرجه عن الوزارة صفى لصالح ، ولكن شاور حين خرج عن قوص ، جمع جموعه بقصد القاهرة ، وهو حين خرج عن الوزارة قصد الى الشام وحيدا .

ولقد دبر شاور لأمره حين خرج عن قوص ، ثم دبر لأمره حين خرج عن القاهرة الى الشام ، فاذا هو ينزل على الملك العادل نور الدين بدمشق مستصرخا ، واذا هو يفرض على نفسه ثلث جباية مصر ، ان جهزه العادل بجيش .

وعاد شاور الى مصر ، ولكنه لم يعد وحيدا ، عاد يصحبه جيش لنور الدين وعلى رأسه أسد الدين شيركوه ، ودخل أسد الدين شيركوه مصر بعد ان انتقم له من مخرجه عنها ، وعاد شاور وزيرا كما كان من قبل .

يجرى هذا والعاضد على كرسيه ، يخرج عنه وزيره على تلك الصورة التي مرت بك ، ويعود اليه على تلك الصورة التي تقررؤها ، وليس له في الأمر شيء ، وكان الدولة ضيعة متنازعة من فاز فيها بشيء غلب عليه ، والعاضد في كرسيه يعنيه أن يجنى من الرزق ما يخلص اليه .

ولكن للقصة بقية فهي الى هنا لم تبلغ تلك النهاية التي انتهت بالدولة ليشهدا العاضد وليبلغ الانتقام مداه .

فلقد نكث شاور بعهده لأسد الدين وسلطانه العادل نور الدين ، فخرج أسد الدين الى الشام يحمل معه تلك الصحيفة الفادرة .

ورجع أسد الدين من الشام ليعود منها اكثر عدة واكثر عددا ، ويدخل أسد الدين مصر ويقتل شاور ويولي أسد الدين الوزارة . وهكذا يهب العاضد الوزارة لكل طارئ عليه ذي قوة ، لا يعنيه كيف دخل عليه هذا ولا يعنيه كيف خرج عنه ذاك ، حال من الضعف تدعو الى الرثاء . ولكن الأجل لا يطول بأسد الدين ، فاذا هو يموت بعد شهرين ، وما نعم بالوزارة غير أيام ، ويميل العاضد الى ابن أخ لأسد الدين وهو صلاح الدين ، رآه العاضد صغيرا فظن أنه غالبه على أمره ، ورآه دون رجال أسد الدين فخال انه يمل عليه .

ولكن النطن الذي ظنه العاضد لم يقع منه شيء ، فاذا صلاح الدين يغلب العاضد قوة ، واذا هو يستبد بالأمر دونه ، واذا هو يقضى على العاضد ، ويقضى على أسباب دعوته ، واذا هو يهدم دار الحكمة بالقاهرة التي كانت مدرسة للعقيدة الفاطمية لينبئ مكانها دارا للشافعية ودارا للمالكية ، واذا هو يعزل قضاة الشيعة ليولي مكانهم قضاة من الشافعية .

وكأنى بالعاضد حين قبل أن يدخل عليه الوزارة رجل من رجال العادل نور الدين ، كان قد قبل أن يدخل عليه العادل مملكته ، وكأنى بالعاضد حين ضعف للأولى كان في خلده الضعف للثانية .

٢٥

وبات نور الدين حين احس ضعف العاضد وهوانه يفكر في شيء ، وحين رأى صلاح الدين كاد أن يكون له الأمر دون العاضد ، أنعم يفكر في هذا الشيء .

وحين ضعف العاضد وهان فكر نور الدين في فض هذه الدولة التي خرج أهلها على العباسيين ، ، وهم ملوك لينشئوا دولة ، وخرج أهلها عن الملك والعباسيون ملوك مارعوا هذه الدولة ، وحين وجد صلاح الدين مستأثرا بالأمر دون العاضد أنعم اتفكر في هذا الشيء يرى أن يكون خروج هؤلاء الأهل عن هذه الدولة على يديه .

ولقد ارسل نور الدين الى صلاح الدين يغريه بأن يدعو للمستضى ، ويقطع الدعوة للعاضد .

وكان صلاح الدين يريد شيئا ويخشى شيئا ، كان يريد أن يفعل ذلك ليجتني هو الغنم ، وكان يخشى أن يفعل ذلك عن أمر نور الدين فيشركه نور الدين في الغنم ، فأخذ يمثل نور الدين متعللا بما يحذره من مخالفة أهل مصر ، وما أساغ نور الدين تلك التعللة فكتب اليه يستحثه أن يفعل .

وجلس صلاح الدين الى أصفياه يستشيرهم فاذا هم كلهم مجمعون على ما أراد نور الدين ، غير مجمعين على مارآه صلاح الدين .

ولقد كان صلاح الدين يستمل من حرصه على هذا الملك الذي كان يطعم فيه ، فغشى ذلك على عينيه أن تنظرا بعيدا ، وكان أصفياؤه يستملون من حرصهم على حياة صلاح الدين ففتحت أعينهم لتنظر بعيدا .

وغلب حرص أصفياء صلاح الدين حرص صلاح الدين ، ويعلمون أحدهم المنبر مع اول جمعة من المحرم قبل الخطيب فيدعو للمستنصر فلا ينكر أحد عليه شيئا .

وأنى للناس أن يقولوا شيئا ، وقد أرخوا للتجربة لتبلغ مداها ، وهامهم هؤلاء رأوا التجربة قد بلغت مداها فسكتوا عند نهايتها لم يقولوا شيئا يطيل في عمرها ، كما سكتوا عند بدئها لم يفعلوا شيئا يقف في سبيلها .

وحين أحس صلاح الدين سكون الراحة في نفوس الناس شجع على أن يخطو الى الأمام خطوة أخرى ، فما أن أظلت الجمعة

الثالثة حتى كان الخطباء أنفسهم على المتأبر يحذفون اسم العاضد
ويخطبون للمستضى أمرهم بذلك صلاح الدين فما قالوا شيئا ،
وسمعهم الناس فلم يقولوا شيئا •

وان القدر الذى أصاب العاضد بهذه أصابه قبلها بمرض حجب
عن الناس رحمة به أن يسمع ، ورحمة به أن يرى حتى لا يثقل
عليه العذاب ، وحتى لا يعجز عن حمل العذاب •

ومضى العاضد بمرضه لم نعلم على أية صورة مات ، أخليفة
ولى أم غير خليفة • ومع الموت يستوى من عظم ومن صغر فى شيء
ويختلفون فى شيء ، يستوون فى أنهم ماتوا ويختلفون فى أن من
مات عظيما يبقى ذكره عظيما ، وأن من مات صغيرا يبقى ذكره
صغيرا •

وصلاح الدين الذى أساء الى العاضد حيا لم يرد أن يسئ اليه
ميتا ، والذى هون من العاضد موجودا ، لم يرد أن يهون منه غير
موجود ، فلقد جلس صلاح الدين الى الناس يتلقى العزاء فى العاضد
يرى ذلك واجبا عليه لخليفة راحل ، ويرى ذلك واجبا عليه ليكسب
عطف الناس عليه فلا يقال شامت •

ويضع صلاح الدين يده على ما ضم قصر العاضد ، فاذا هو
قد وضع يده على كنوز لا تحصى من حلى وجواهر واللوان غير هائلة
وذاك من كل نفيس وغال ، وأخرج جميع من فى القصر من أمة وعبد ،
فباع شيئا ووهب شيئا وخلا القصر من سكانه وأصبح كأن لم
يغن بالأمس •

٤٦

ومضت الدولة الفاطمية عن أربعة عشر خليفة ، حكم منهم
بافريقية : المهدي والقائم والمنصور ثم المعز الى أن صار الى مصر ،
والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلي والأمير والحافظ
والظافر والفائز والعاضد •

لقد حكمت هذه الدولة منذ ظهر المهدي يسجلماسة في ذي
الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين ، الى أن مات العاضد ، نحو من
مائتين واثنين وسبعين سنة .

وحين انتهى الى بغداد انتهاؤها عمتها البشرية وازينت وتعانت
فيها صيحات الفرح ، وخلع الخليفة العباسي على نور الدين ، كما
خلع على صلاح الدين ، واذا الاعلام السود تعود تفررف على مصر ،
كما رفرفت عليها من قبل .

غير أن صلاح الدين لم يخلص له الأمر كله صفوا ، فلقد
خرج عليه قوم من الشيعة بمصر وبايعوا دأود بن العاضد ، فخرج
اليهم صلاح الدين ، وقتلهم عن آخرهم وبعد حين قليل خرج ابن
لدأود ، وهو سليمان ، واختار الصعيد مكانا له ، فقبض عليه
صلاح الدين وحبسه الى ان هلك .

كان هذا في مصر وكان شيء مثله في المغرب ، ففي فاس
خرج محمد بن عبد الله بن العاضد ، يدعو هناك لنفسه ، وتسمى
بالمهدي ، فاذا هو يقتل ، واذا هو يصلب بعد ان يقتل .

وما وجد المقتولون منهم بآخر م وجدوه أولا ، فلقد اثار
المقتولون أولا ، يوم ان كان هذا البيت على ابواب الحياة :
النفوس . وحرك القلوب ، وهلع لها القاتلون على الرغم من انهم
كانوا يدافعون به عن انفسهم فيما يخافون ، ولقد مضى المقتولون
ثانيا يوم ان ودع هذا البيت الحياة ، وما اثاروا رحمة عليهم في
القلوب حين ودعوا ، ولكن اثاروا اسى ، واثاروا عبرة حين فارقوا .

ولقد انطوت بانطوائهم صفحة ذلك الجهاد المرير الذي بدأ
جاهليا وانتهى اسلاميا ، والذي صدق نبوءة كاهن كما تنبأ بها
وفوق ما تنبأ بها ، فما نظن الدماء التي أريقَت كانت قليلة ، وما
نظن الأرواح التي ازهقت كانت قليلة ، وما نظن الذين شردوا أو
عذبوا أو اضطهدوا كانوا قليلين . وما شغل هذا الخلاف بيتين أو
ثلاثة ولكنه شغل الأمة الاسلامية كلها ، شغلها به فتنة فرقَت عليها

كلمتها ، وشغلها به حربا ارهقتها ، وشغلها به رايا بلبسل عليها
عقيدتها . فاذا هى قد ذاقت انحية التى ذاقتها هذه البيوت مرة
قاسية مبللة .

ولقد مضت هذه البيوت لم يبعد منها غير أسمائها ، وبقي
بعد أسمائها خيط موصول لهذا البيت العاوى ثم الفاطمى ، وقد
دخل هذا البيت الحياة يهيم له الناس عن عقيدة ، ومضى فى
الحياة يؤسس له الناس هذه العقيدة ، وخرج عن الحياة وقد بقيت
له هذه العقيدة .

ولكن هذه العقيدة ما خلقت حتى تفرقت ، وما تفرقت حتى
فرقت الناس معها ، وما فرقت الناس معها حتى فرقتهم عن الأمة .
وما نظن مثل هذه الفرقة دخلت بسلام ، ولا عاشت فى سلام ،
وما أحرصنا على أن تنتهى بسلام .

وما دخلت هذه العقائد المفرقة الا على السنة النافسين على
الأمة العربية وجودها ، وما نظن حاضرا الأمة العربية خلا مما خلا منه
ماضيها ، وكما بدت الفرقة فى الماضى تحمل أسبابها ، كذلك هى فى
الحاضر تحمل أسبابها .

غير أن السعيد من وعظه تاريخه وافادته عبره ، يعرفه صريحا
ليفيد منه صراحة لا تعرف المواربة ، ويعرفه على حاله من مرارة
وحلاوة ليفرق بين قسوة المرارة ولذة الحلاوة ، ويعرفه غير ضجر
بعبوبه ليظهره هو من عيوبه ، وغير مغرور بحسناته ليزيد هو على
حسناته .

بهذا يتصل التاريخ : يقيم آخره معوج اوله ، ويتم آخره ما
قام فى اوله ، وبغير هذا ينقطع التاريخ فلا يتصل آخره بأوله .

مطبوعات

الشعب

* الموسوعة التاريخية المبصرة

تؤرخ للصراع الذي نشأ في صفوف الأمة العربية منذ مولد التوأمين : أمية وهاشم ولازال ممتدا على مر العصور والندهور الى يومنا هذا على صور مختلفة . وتبرز في ثنايا هذا الصراع الممتد مكان العظلة والعبرة على الأجيال المقبلة تفيد مما غرقت فيه الأجيال السالفة .

- | | |
|---------------------|--------------------------|
| ● مغيب دولة | (نقد وتحت الطبع) |
| ● ميلاد دولة | (نقد وتحت الطبع) |
| ● قيام دولة | (طبعة أولى دار الشعب) |
| ● نهاية المطاف | (طبعة ثانية دار الشعب) |
| ● الدولة الأيوبية | (نقد وتحت الطبع) |
| ● الدولة الأخشيديّة | (نقد وتحت الطبع) |
| ● عصر اندويلات | (تحت الطبع) |
| ● العصر الحاضر | (تحت الطبع) |